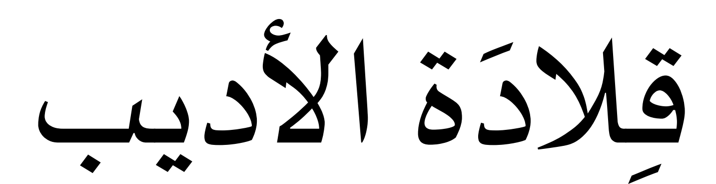


قِلادَة الأديب

مختارات شعرية رائقة للحفظ والاستشهاد مع ذكر مناسبتها وشرحها والتعليق عليها

سليمان بن ناصر العبودي

شوال – ١٤٤١ هـ

(نشرة الكترونية)







قناة (مختارات شعرية للحفظ)
بإشراف سليمان العبودي
https://t.me/poetry_sn



الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أما بعد

فإن الاطلاعَ على شِعْرِ العَرَبِ القدماء، والإحاطةَ بأبياتهم السائرة، والتضلعَ من مادَّتهم اللغوية في التعبير والمخاطبة هي الجادَّةُ الأقصر والوسيلة الأشهر -بعد معرفة الوحيين- لكلِّ من أراد أن يكون له الحظ الأوفى والقدح المعلى من القدرة على البيان عن ما يختلج بنفسه من مشاعر، وما يضطرمُ في روحه من أفكار، وما يعتمل في عقله من معارف، ولهذا المقصد الشريف وغيرِهِ جرتْ عادةُ أهلِ العلم قديما وحديثا على حفظِ بعض المنتخبات الشعرية، ما بين مقلٍّ من ذلك ومُكثر، فقد صحح الأصمعيُّ شعرَ هذيل على الإمام الشافعي رحمهما الله، وحَفِظَ الطبريُّ ديوان الطِّرِمَّاح بن حكيم، وروى ابن عبد البر شعرَ أبي العتاهية، إدراكًا تاما من هؤلاء الأئمة وغيرهم أنك إن حنيت رقبتك للغة عاما، فإنها ستخدمك دهرا، ووعيا كاملا منهم أن للغوص في معرفة أساليب العرب أبلغَ الأثر على الإنسان في مَدّ رواق سلطته في التفكير والنظر العقلي، وقد روى ابن أبي حاتم في كتابه آداب الشافعي ومناقبه بسنده عن الشافعي قال: (أصحاب العربية جن الإنس، يبصرون ما لا يبصر غيرهم) .

وكأنَّ الشافعيَّ باتساعه اللغوي المعروف يروي في هذا النص تجربتَه الشخصية التي ورِثها عن علم اللغة، ورأى أن تبحره اللغوي نمى عنده ملكة النظر والاستنباط، ورفع مستوى الأداء العقلي في التفكير إلى الغاية، فجاءت شهادته لأهل اللغة ومقدرتهم على إبصار ما لا يبصره سواهم من هذه الجهة. وقد توارد على هذا المعنى وما يقاربه عدد من العلماء السابقين، فيقول ابن المقفع : (بالأدبِ تنمى العقولُ وتزكو)، ويقول الفرّاء : (قلّ رجل أنعم النظر في العربية وأراد علما غيره إلّا سهل عليه)، ويقول أبو حامد الغزالي: (علم اللغة سلم ومرقاة إلى جميع العلوم)، ويقول ابن تيمية : (اعتياد اللغة يؤثر في العقل)، وقال ابن خلدون واصفا حال بعضهم بأنه: (سبقت له عجمة في لسانه، فربطت عن ذهنه).

تفسير علاقة المخزون اللغوي بالتفكير:

كلمات العلماء في تأثير اللغة على العقل وعلى تحصيل المعرفة كثيرة، وبالإمكان أن نذكر علةً واحدة حول علاقة المخزون اللغوي بالتكوين المعرفي والفكري، وهو أن العقل البشري ينتج عمليات في



غاية التعقيد ومنتهى التفاوت، وهذه العمليات العقلية الهائلة لا تشعر بها الحواسّ، وإنما يكشف عنها البيان، والألفاظ هي الثوب الذي تلبسه المعاني، فإذا اتسع الثوب استطاع أن يغطي قدرا واسعا من المعاني، وإذا ضاق ظلَّت المعاني محبوسة في زوايا الذهن لا تجد من يخرجها من كِناسِها، أو حتى من يَسمع وَقْعَ أنفاسِها، وهذا مندرج في كلمة عبد القاهر الجرجاني حين قال: (فإنه لن تتسع المعاني حتى تتسع الألفاظ)، فالبيان اللغوي هو إبانة عن خلجات النفس وكشف عن مخبآت الصدر واقتناص لشوارد المعاني، والعرب -كما يقول الشاطبي - (إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها)، وهذا قدرٌ من التفسير لعلَّة استبداد سلطان اللغة على التفكير، والأمر أعمق من ذلك وأدق، فإن اللغة نظام تفكير، وسلطة تفسير، ومِضَخَّة إنتاج.

أثر معرفة القواعد في الأسلوب الأدبي:

يخيل لي أن القارئ الكريم لم يصل إلى هذا الموضع إلا وقد استقرت في ذهنه هذه المقدمة ضِمْنا، وهي أن التضلع من اللغة له أثر بالغ في البيان، وأصبحت مسلَّمةً يبنى عليها ما بعدها، وها هنا يرد سؤال منطقي: ما المقصود بعلوم اللغة التي تؤثر أثرا مباشرا في البيان الإنساني؟ وما أثر القواعد في الأسلوب الأدبي؟ ولتقريب جواب هذا السؤال -مجردَ تقريبٍ- أضرب هذا المثال:

حين تريد أن تعبر عن لقائك بصاحبك عيسى وهو راكب، فربما كتبتَ الجملة التالية:

(لَقَيت عيسا راكبٌ).

فإذا تعلمتَ بعد ذلك النحو فقط، فربما كتبتها هكذا:

(لَقَيت عيسا راكبا).

وإذا تعلمتَ بعد ذلك الصرف فقط، فربما كتبتَها هكذا:

(لَقِيتُ عيسا راكبا).

وإذا تعلمتَ الإملاء فستكون الجملة هكذا:

(لَقِيتُ عيسى راكبا).

لعلك تلاحظ أن الجملة تغيرت مرارا مع كل علم يضع طرف بنانه على شَباةِ قلمك، وأمست هذه الجملة القصيرة مع تعاضد العلوم مستويةً على سوقها، مسلَّمَةً لا شِيَة فيها، فهي صلبة من جهة



البناء الخارجي، وهذا هو ما تمنحه لنا في الجملة علوم القواعد على مهاراتنا التعبيرية، وهي منحة ليست هيِّنةً كما ترى، لكن علينا أيضا أن ندرك حدودَ تأثير هذه العلوم على الأسلوب، وأنه مهما بلغ من الأهمية إلا أن له حدودا لا يستطيع تجاوز أسوارها، فهذا المثال السالف قُصد به تقريبُ صورةِ حدود التأثير.

أما هدم البناء اللغوي للجملة من أساسِها، ثم افتراع جمل أخرى أكثر أناقة وجمالا، أو اختراع سياقات جديدة أرقَّ صياغةً وبناءً، أو انتقاء طرائق مختلفة في التعبير والبيان عن المراد المضمر في الضلوع، فهذا –مع شرطِ وجود الملَكة- إرثُ القراءة الدقيقة في الأساليب العالية المودَعة كتاب الله تعالى، والمشتملة عليه البلاغة النبوية العظيمة، وهو أيضا نتيجة إدامة النظر في تركةِ الأقلام الفصيحة المقتدرة على النفاذ إلى بواطن المعاني.

هذه حقيقةٌ أردت الإبانة عنها حين رأيت من يرسم حدودا لملكة البيان لا تتجاوز معرفة قواعد الإعراب وما في بابها، وهذا ذكر لنصف الطريق، أما الاقتصار عليه فهو لا يوصل إلى المقصود بحال، وقد نبَّه على هذا المعنى الدقيق العلامة النحوي أبو حيان الأندلسي -وبالغ في تقريره- فقال: (أكثر أئمة العربية هم بمعزل عن التصرف في الفصاحة والتفنن في البلاغة .. وقلَّ أن ترى نحويا بارعا في النظم والنثر، كما قل أن ترى بارعا في الفصاحة يتوغل في علم النحو).

وجاء في ترجمة أبي حامد الغزالي أنه مما كان (يُعترض به عليه وقوعُ خللٍ من جهة النحو في أثناء كلامه، وروجع فيه، فأنصف، واعترف أنه ما مارسه، واكتفى بما كان يحتاج إليه في كلامه، مع أنه كان يؤلف الخطب، ويشرح الكتب بالعبارة التي يعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها).

فالنحو والصرف ونحوهما من علوم القواعد يقومان بمهمة ترسيم وضبط الحدود الخارجية لدولة الأسلوب، أما البنية التحتية والإدارة الداخلية لهذه الدولة فليست هي مهمة سيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني ونظرائهم، وإنما فَسَحَ هؤلاء النحاةُ الصدرَ لأصحابِ المعلَّقات وأبي تمام والمتنبي والجاحظ وابن قتيبة والجرجاني ليتولوا مهمة إدارة هذه الدولة من الداخل!





قلادة الأديب:

وبعد.. فهذه مختارات شعرية من العصورِ الأولى ضمنتُها شرحَها والتعليقَ عليها، وهي مادَّة انتخبتُها للحفظ والاستشهاد، وعَلَّقْتُ عليها بشرح مُقتضب يجلِّي إشكال الأبيات ويحلُّ مُغْلقاتِها، ويضيء مُعَمَّيَاتِها.

وإن أعظم المعارف أثرا على الإنسان وشحذا لموهبته واستقرارا في نفسه ما أخذَه بِصَبرٍ طويلٍ وتأملٍ عميقٍ وإدامةِ نظرٍ وتقليبِ فِكْرٍ حتى وإن كان قليلا، فإن بركتَه تربو مع كرِّ الليالي ومَرِّ الأيام، وإن أقلَّها أثرًا على الإنسان ما أخذه مكاثرةً دون تدقيق، ومراكمةً دون تحقيق فإن أثره سريع الاضمحلال وشيك الزوال، وهذه قاعدةٌ صحيحةٌ في كل فَنّ، فلا تنحصر في الأدب فَحَسْب.

وكان منهجي الذي سلكتُه في هذا البرنامج كما يلي:

- اشتمال المختارات الشعرية على المعاني اللطيفة الصالحة للاحتجاج أو الاستشهاد.
- عامة المختارات من الشعر القديم، إما من العصر الجاهلي خصوصا، أو العصر الأموي، أو العصر العباسي، لما لهذه العصور المتقدمة من فضل بيِّن على أشعار الأعصار المتأخرة.
- عامة المختارات هي مما توارد على ذكرها بعض أئمة اللغة، أو وردت في بعض المجاميع اللغوية المشهورة.
- عدلت في هذا البرنامج عن القصائد الطوال إلى القطع الشعرية القصيرة، دفعا للسأم، وتنشيطا للذاكرة، وتسهيلا للاستشهاد.
- شرحت الأبيات بما يزيل عنها الغموض والالتباس، ويجعلها بيِّنة جَليّة لعامة الناس، دون استقصاءٍ في التفسير، أو استفاضَةٍ في التعبير.
- كتبت ترجمة موجزة لكل شاعر أذكر فيها أهم ما يتعلق بحياته وأدبه.
- حَرَصْتُ على ضبط الأبيات بالشكل، مع ذكر البحر العروضي لكل قِطْعَة مختارة.

كان هذا في مبادرةٍ عامة في قناة أدبية متخصصة على التيليجرام، شارك فيها آلاف المتابعين الكرام بالحفظ والمتابعة، وكان ثمة تسجيل صوتي ملحن وملقًى لكل قطعة مختارة، وذلك في شهر شوال من العام الحادي والأربعين للهجرة النبوية[١].

---

[١] بإمكانك الاطلاع على القناة بالنقر على الرابط التالي: https://t.me/poetry_sn



وقد قسمت هذا الكتاب الالكتروني إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: المختارات الشعرية.

الفصل الثاني: شرح المختارات شرحا موجزا.

الفصل الثالث: ملحقات متعلقة بالمختارات، وفيها ما يلي:

- شرح مطول لأبيات معن بن أوس للدكتور فيصل المنصور.
- مقال (الشيء الملقَّف)، وهو تعليق كتبه الشيخ علي الفيفي حول أبيات عبدالله بن معاوية.
- مقال (البرد المقعد)، وهو تعليق كتبه الشيخ عثمان العمودي حول أبيات أم الضحاك المحاربية.
- مقال (فناء اللذة)، وهو تعليق كتبتُه حول أبيات أبي نواس.
- مقال (صخرة الأسرار)، وهو تعليق كتبتُه حول أبيات مسكين الدارمي.
- مقال (الغياب الموجع)، وهو تعليق كتبتُه حول بيتي المهلهل بن ربيعة.

وأرجو أن تكون هذه المادة الأدبية -على وَجازتها- لَبِنَةً نافعةً لحافظِها بالاحتجاج والاستشهاد والتذوُّق، دافعةً للمتأمِّل في دقائق معانيها لأن يغذَّ المسير في هذا الطريق الماتع، وأن تغدو نافذةً مطلَّة لمن أخذها بحقّ على الشعر العربي القديم، فما قصدنا بهذا الجمع الأدبي إلا إشعال شموع في طريق تذوق كلام العرب، وضبط ألفاظه، وتقريب معانيه، وهو طريقٌ لاحِبٌ طويل ممتدٌّ.

أشكر جميع من شارك وأعان وكان له بالغ الأثر في توسيع مدى الانتفاع بهذه المادة، وأخص منهم أخي المهذَّب الأديب عثمان بن عبد الله العمودي فقد بذل جهدا كبيرا في التصميم والاختبارات ومراجعة الشرح وتحريره، وغير ذلك، وأشكر أخي الدكتور فيصل بن علي المنصور على شرحه العميق الموسع لـ(حماسية معن بن أوس)، وأخي الشيخ علي بن جابر الفيفي على تعليقه الماتع الجميل بعنوان (الشيء الملفف)، وكذا من شارك في تلحين الأبيات وتسهيلِ حِفظها على المتابعين، فشكر الله لهم جميعا وأحسن إليهم، وجعل هذا في ميزان حسناتهم يوم يلقونه.

ونسأل الله تعالى أن يباركَ في هذا الجمع الأدبي، وأن يجعله قنطرة صالحة لتعميق فهمنا لكلام الله تعالى وكلامِ رسوله صلى الله عليه وسلم.

سليمان بن ناصر العبودي - s.n.alobodi@gmail.com

١١/٣/١٤٤٢ هـ

الفصل الأول:

المختارات الشعرية.

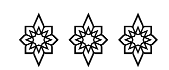


الغيابُ الموجِع

قال مُهَلْهِلُ بنُ رَبيعةَ في رِثاء أخيه كُليب[١]: (بحر الكامل)

١ نُبِّئْتُ أنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ ... واسْتَبَّ بَعْدكَ يا كُلَيْبُ المجلسُ

٢ وَتَكَلَّموا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ ... لو كنتَ شاهِدَهُم بِها لم يَنْبِسوا



دَبيبُ الكُسالى

قال حَوطُ بن رِئاب الأسدي[٢]: (بحر البسيط)

١ دَبَبْتَ للمَجْدِ والسَّاعون قد بَلَغُوا ... جَهْدَ النُّفوسِ وألقوا دونَه الأُزُرا

٢ فكابدوا المجد حتى مَلَّ أكثرُهم ... وعانَقَ المجدَ مَنْ أَوفى وَمَنْ صبَرا

٣ لا تحسَبِ الْمجدَ تمرا أنتَ آكلُهُ ... لن تبلغَ المجدَ حتى تَلْعَقَ الصَبِرا

---

[١] عدي بن ربيعة بن مرة بن هبيرة، من بني جشم بن بكر، من أهل نجد، أبو ليلى، المهلهِل، لُقِّب مُهَلهِل لأنه أولَ من هَلْهَل نسج الشعر، أي رَقَّقَه، وهو خالُ الشاعرِ امرئِ القَيس، كان صبيحَ الوجه فصيح اللسان، عكف في صباه على اللهو والتشبيب بالنساء، فسماه أخوه كليب: "زير النساء" أي جليسهُنَّ. لما قتل جساس بن مرة كليبا ثار المهَلْهِل لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب، التي طالت وامتدت أربعين سنة.

[٢] شاعر مخضرم، من بني ثعلبة بن دودان من بني أسد، اشتهر في الجاهلية، وأدرك الإسلام.



صخرة الأسرار

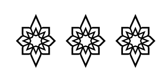


قال مِسْكين الدارمي[1]: (بحر الطويل)

١ وفتيانِ صدقٍ لَسْتُ مطلعَ بعضِهِم ... على سِرِّ بعضٍ غيرَ أَني جِمَاعُها

٢ لكلِّ امرىءٍ شِعْبٌ منَ الْقَلبِ فارِغٌ ... وموضعُ نجوى لا يُرامُ اطِّلاعُها

٣ يَظَلُّونَ شتى في البلاد، وسرُّهم ... إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انْصداعُها



مقابر المحاسن

قال قَعْنَبُ بن ضَمْرة[2]: (بحر البسيط)

١ إن يسمعوا رِيبةً طاروا بها فَرَحًا ... مِنِّي، وما سمعوا من صالحٍ دفنوا

٢ صُمٌّ إذا سمعوا خيرا ذُكِرتُ به ... وإنْ ذُكِرتُ بِشَرٍّ عِنْدَهم أَذِنوا

[1] ربيعة بن عامر بن أُنيف بن شريح الدارميّ التميمي، شاعر عراقي أموي، لُقِّب مسكينا لأبيات قال فيها: (أنا مسكين..)، ومن شعره المشتهر في كتب النحاة: (أخاك أخاك، إن من لا أخا له *** كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح).

[2] قعنب بن ضمرة الغطفاني، شاعر أموي، يقال له: "ابن أم صاحب"، هجا الخليفة الوليد بن عبدالملك، وقد اشتهر له هذان البيتان المختاران في البرنامج.



فليتك تحلو!

قال أبو فراس الحمداني (٣٥٧هـ)[١]: (بحر الطويل)

١	إذا الخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إلاّ مَلالَةً	فَلَيْسَ لهُ إلا الفراقَ عتابُ
٢	بِمَن يَثِقُ الإنسانُ فيما يَنوبُهُ	ومِنْ أينَ للحُرِّ الكَريمِ صِحابُ؟
٣	وَقَدْ صَارَ هَذَا النّاسُ إلاّ أقَلَّهُمْ	ذِئابا على أَجسادِهِنَّ ثيابُ!
٤	وما كلُّ فَعَّالٍ يُجازى بِفِعْلِهِ	ولا كُلُّ قَوالٍ لديَّ يُجابُ
٥	وربَّ كلامٍ مَرَّ فوقَ مَسامِعي	كما طَنَّ في لَوحِ الهجيرِ ذُبابُ!
٦	فليتكَ تَحلو والحياةُ مريرةٌ	وليتكَ ترضى والأنامُ غضابُ
٧	وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ	وبيني وبين العالمين خَرابُ

[١] هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، أبو فِرَاس الحَمْدَاني: أمير، شاعر، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة الذي كان يمدحه المتنبي، وقد كان الصاحب بن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وختم بملك –يعني بالأول: امرأ القيس وبالثاني: أبا فراس-. جُرِح في معركة مع الروم، فأسروه، واشتهرت قصائده الروميَّات، وبقي عند الروم في القسطنطينية أعواما، ثم فداه ابنُ عمه سيف الدولة بأموال عظيمة. قال الذهبي: كانت لأبي فراس منبج، وتملَّكَ حمص، وسار ليتملك حلب، فقتل في تدمر.





قال ابن الرومي (٢٨٣هـ)[١]: (بحر المتقارب)

١ إذا ما وَصَفْتَ امرأً لامرىءٍ فَلا تَغْلُ في وَصْفِه واقصِدِ

٢ فإنَّك إن تغلُ تغلُ الظُّنو نُ فيهِ إلى الأمَدِ الأَبعدِ

٣ فينقُصُ مِن حيث عَظَّمْتَه لفَضلِ المغيبِ على المشهدِ

---

[١] علي بن العباس بن جريج الرومي، شاعر كبير هَجَّاء، من طبقة المتنبي موهبةً، روميُّ الأصل، كان جدُّه من موالي بني العباس، وُلد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموما، قيل: دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد)، وكان ابن الرومي قد هَجاه، وقال ابن خلكان: صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها، ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقي فيه بقية. وأبرع ما اشتهر به ابن الرومي الوصف، وكان يغالي فيه العقاد ويقول: لست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعرا واحدا له من الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي. ومن أشهر شعره داليَّتُه في رثاء ولده محمد. قيل -في قصة موته-: إن القاسم بن عبيد الله الوزير كان يخاف من هجو ابن الرومي، فدس عليه طعاما مسموما فأحس بالسم، فوثب، فقال الوزير: إلى أين؟ قال: إلى موضعٍ بعثتني إليه. قال: سلِّمْ على أبي. قال: ما طريقي على النار! فبقي بعدها أياما، ومات. كتبت عنه بعض الدراسات المعاصرة نحو كتاب "ابن الرومي حياتُه من شِعره" لعباس محمود العقاد.

شقاء المحب!

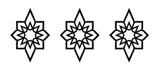
قال أحدهم[1]: (بحر الوافر)

١ وما في الأرض أشقى مِن مُحِبٍّ ... وَإنْ وَجَدَ الهوى حُلْوَ المذاقِ

٢ تراهُ باكيا في كلِّ حينٍ ... مَخَافَةَ فُرقةٍ أو لاشتياقِ

٣ فَيَبْكي إنْ نَأوا شوقًا إلَيْهِم ... وَيَبْكي إنْ دَنَوا خوفَ الْفِرَاقِ

٤ فَتَسْخَنُ عينُه عِنْد التَّنائي ... وَتَسْخَنُ عينُه عِنْد التلاقِ



استسهال البدايات

قال العباس بن الأحنف (١٩٢هـ)[2]: (بحر الكامل)

١ الحبُّ أوّلُ ما يكون لجاجَةً ... تأتي به وتسوقه الأقدارُ

٢ حتّى إذا اقتحمَ الفتى لُجَجَ الهوى ... جاءتْ أمورٌ لا تُطاقُ كبارُ!

---

[1] نسبتها مضطربة، وقد نسبها بعض المعاصرين لورد بن عمرو الجعدي، وهو شاعر جاهلي، استنادا منهم -والله أعلم- لعبارة موهِمة لشارح الحماسة المرزوقي، وفي النفس من هذه النسبة أشياء، فلغة الأبيات وروحها يوحي بزمن صاحبها، فهي إلى أشعار الإسلاميين أقرب، وهي على كل حال من أشعار ديوان الحماسة، ومما أملاه الزجاجي، وكان يستشهد بها ابن القيم رحمه الله في كتبه.

[2] العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفيّ، أصله من اليمامة في نجد، شاعر غزل رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس، وكان أهله في البصرة، وبها مات أبوه، ونشأ هو ببغداد، وتوفي بها، وقيل بالبصرة، جعل غالب شعره في غرض الغزل، ولم يقل في المديح والهجاء إلا نزرا، وله أخبار مع هارون الرشيد وغيره.





سباع بشرية!

قال أبو الطيِّب المتنَبِّي (٣٥٤ هـ)[١]: (بحر الخفيف)

١ إنما أَنْفُسُ الأنيسِ سِباعٌ ... يَتَفارَسْنَ جَهْرَةً وَاغْتيالا

٢ مَنْ أَطاقَ الْتماسَ شَيءٍ غِلابا ... وَاغْتِصابا، لم يَلْتَمِسْهُ سؤالا!

٣ كُلُّ غَادٍ لحاجَةٍ يَتَمَنَّى ... أن يكونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبالا



لذة السعي إلى الأماني!

وقال: (بحر الطويل)

١ وأحلى الهوى ما شكَّ في الوَصْلِ رَبُّه ... وفي الهجرِ، فهو الدَّهرَ يرجو وَيَتَّقي

٢ ولم أرَ كالألحاظ يومَ رَحيلِهم ... بَعَثْنَ بِكُلِّ القَتْلِ مِن كُلِّ مُشْفِقِ

٣ أَدَرْنَ عُيُونًا حائراتٍ كأنَّها ... مُرَكَّبَةٌ أحداقُها فوقَ زِئبقِ

٤ عشيةَ يَعْدونا عنِ النَّظرِ البُكا ... وَعَنْ لَذَّةِ التَّوديعِ خوفُ التَّفرقِ

---

[١] أحمد بن الحسين أبو الطيّب الْجُعفيُّ الكوفِي المتنّبي الشاعر، قيلَ بأنه ادعى النبوة في أولِ شأنه ثم رجع عن ذلك فسمي بالمتنبي، وكان هو ينكر وُقوعَ ذلك، أَكْثَرَ الْمُقامَ بالبادية لاقتباسِ اللغة، ونظر في فنون الأدب والأخبار وأيّام الناس، وتعاطى قوْلَ الشعر في صِغَره حتى بَلَغَ فيه الغاية، ومدح الملوكَ، وفي شعره ما يوحي بأنه كان يبحث عن وِلاية، وسارَ شعره في الدنيا في حياته وبعد مماته، وله الأمثال السائرة والمعاني المبتكرة، قال ضياء الدين نصر الله ابن الأثير: سافرت إلى مصر ورأيت الناس يشتغلون بشعر المتنبّي، فسألت القاضي الفاضل، فقال: إنّ أبا الطيّب ينطق عن خواطرِ الناس! مات مقتولا وعمره إحدى وخمسون سنة، توسَّع الذهبي شَيئًا ما في ترجمته في تاريخ الإسلام.



ربما أفسد التمادي!

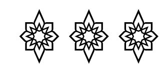
قال أعرابيٌّ[١]: (بحر المديد)

١ ما لِعينيْ كُحِلَتْ بالسُّهادِ ... وَلِجَنْبيْ نابِيًا عَنْ وِسادِي

٢ لا أذوقُ النَّومَ إلا غِرارا ... مِثلَ حَسْوِ الطَّيرِ ماءَ الثِّمادِ

٣ أَبتغِيْ إِصلاحَ سُعْدَى بِجُهْدي ... وهي تَسعى جُهدها في فَسادي

٤ فَتَتَارَكنَا على غيرِ شيءٍ ... رُبَّما أفسدَ طولُ التَّمادي



استبداد الشعور

قال الطِّرمَّاحُ بنُ حَكيم (١٢٥هـ)[٢]: (بحر الطويل)

١ متى مَا يَسُؤْ ظَنُّ امرئ بِصَدِيقِهِ ... وللظنِّ أسبابٌ عِراضُ المسارحِ

٢ يُصَدِّقْ أمورا لم يجئْه يَقينها ... عليه، ويعشقْ سمعُه كلَّ كاشِحِ

[١] قال المبرّد: هذه أبيات أربعة أُنْشِدناها عن الزِّيَادي، وذُكِر أنه كان يستحسنها، وهي لأعرابي. والزِّيادي المقصود هو إبراهيم بن سفيان الزيادي، من أحفاد زياد بن أبيه: أديب، راوية، كان يشبّه بالأصمعي في معرفته بالشعر ومعانيه.

[٢] الطِّرِمَّاح بن حَكِيم، شَامي المولد والمنشأ، شاعر إسلامي فَحل، انتقل إلى الكوفة، فكان معلِّمًا فيها، واعتقد مذهب الأزارقة، قال الأصمعي: لم نر أحدًا قط أعلم بالشعر من شعبة بن الحجاج (المحدِّث)، قال لي: كنت -قبل طلب الحديث- ألزم الطرمّاح أسأله عن الشعر. وكان الإمام الطبري يحفظ ديوانه كاملا بغريبه ومعانيه. ومما يُستغرب في ترجمة الطرمَّاح أنه كان صديقا للكُمَيت الشاعر، لا يكادان يفترقان. قال الجاحظ: لم يرَ الناس أعجب حالا من الكُمَيْت والطرمَّاح، وكان الكُمَيْت عدنانيا عصبيًّا، وكان الطِّرماح قحطانيا عصبيًّا، وكان الكميت شيعيًّا من الغالية، وكان الطِّرمَّاح خارجيًّا من الصُّفرية، وكان الكُميت يتعصب لأهل الكوفة، وكان الطرمَّاح لأهل الشام، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال اليه. وقيل للكميت ذَلِك: قَالَ اتفقنا على بغض الْعَامَّة.





ومَلَّتْ سُلَيمى!

طُعِن صخرُ بن الشريد[1] في معركة قَاتَل فِيها قِتالا شديدا، فَمَرِض من جُرحه ولَزِمَ الفراش، وطال به مرضُه حولا كاملا، وكانت تقوم على رعايته وهو في تلك الحال أمُّه وزوجتُه، وكان بين زوجته وأُمِّه قديما شيء من الخصومة، وربما كان صخر يميل إلى جانب إلى زوجته، وأصبح قومه يعودونه وهو في فراشه أنهكه التعب، فَسَمِعَ يوما أحدَهم يقول لزوجته: كيف أصبح صخر اليوم؟ فقالت -وقد مَلَّت منه-: لا حيّا فيرجى ولا ميْتا فيُنسى! فَسِمِع صخر كلامَها فشقّ عليه جدا، وسَمِعَ آخر يقول لأمّه: كيف أصبح صخر اليوم؟ فقالت: أصبح بحمد الله صالحا، ولا يزال بحمد الله بخير ما رأينا سوادَه. أي ما رأيناه. وهمَّ صخر بقتل زوجته من الغَيْظ، ولم يستطع أن يحمِلَ السيفَ.

فأنشأ يقول: (بحر الطويل)

١	أرى أمَّ صَخْرٍ لا تملُّ عِيادَتي	وَمَلَّتْ سُلَيمى مَضْجَعِي وَمَكاني
٢	فأيُّ امرىءٍ ساوَى بأمٍّ حليلةً	فلا عاشَ إلا في أذى وهَوانِ
٣	لَعَمري لقد نَبَّهتِ مَنْ كان نَائِمًا	وأَسْمَعْتِ مَنْ كانتْ له أذُنانِ
٤	أهُمُّ بأمرِ الحزمِ لو أَستَطيعه	وقدْ حِيْلَ بينَ العَيرِ والنَّزَوانِ
٥	وما كنتُ أخشى أن أكون جِنازَةً	عليكِ، وَمَن يغترُّ بالحَدَثانِ!

[1] صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد السُّلَمي، أخو الخنساء الشاعرة. كان من فرسان بني سليم، ولأخته (الخنساء) شعرٌ كثير في رثائه ورثاء أخيه معاوية المقتول قبله، ومن مشهور ما قالته فيه: وإن صخرًا لتأتمّ الهداة به *** كأنه علم في رأسه نار.





زفرةُ والد!

قَالَ أُميَّة بن أبي الصَّلْت (٩هـ)[١]: (بحر الطويل)

١	غَذَوتُك مَولودًا، وعِلْتُكَ يَافِعا	تَعُلُّ بِمَا أُدْنِي إِلَيْك، وتَنْهَلُ
٢	إذا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بالشَّكْوِ لم أَبِتْ	لِشَكْواكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلْمَلُ
٣	كَأَنِّي أَنا المطروقُ دُونَك بِالَّذِي	طُرِقْتَ بِهِ دوني فَعَينِيَ تَهمِلُ
٤	تخَافُ الرَّدى نَفسِي عَلَيْكَ، وَإِنَّهَا	لَتَعْلَمُ أَن الْمَوْتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ
٥	فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغايةَ الَّتِي	إِلَيْهَا مَدَى مَا كنتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ
٦	جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظاظَةً	كَأَنَّك أَنْتَ المُنْعِمُ المتَفَضِّلُ
٧	فَلَيْتَك إِذْ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتي	فَعلْتَ كَمَا الجَارُ المجاورُ يَفْعَلُ

[١] أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، من أهل الطائف، شاعر جاهلي حكيم، قال أبو عبيدة: اتفقت العربُ على أن أمية أشعر ثقيف. كان أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح، وتعبد أولا بذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر، وتجنب الأوثان، وطمع في النبوة، لأنه قرأ في الكتب أن نبيا يبعث بالحجاز. قال ابن حجر: والمعروف أنه مات في السنة التاسعة، ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافرا، وقيل: أنه الذي نزل فيه قوله تعالى: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها}. وروى مسلم في صحيحه عن الشَّريد قال: ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم، قال: «هيه» فأنشدته بيتا، فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتا، فقال: «هيه» حتى أنشدته مائة بيت. وفي البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».



عند الشدائد تذهب الأحقاد

كان عيينةُ بن أسماء متزوجًا أختَ الشاعر الأموي عويف بن معاوية المعروف بـ عويف القوافي[1]، ثم حصل بين الزوجين طلاق، فغضب عويف من عيينةَ غضبا شديدا لطلاقه أختَه، وقال: الحرة لا تطلَّق بغير بأس.

ثم دارتِ الأيامُ على عيينة، وَتسلَّطَ عليه الحجاجُ بن يوسف الثقفي، وجعله مَقيَّدا في السِّجن. فلما عَلِم عويفُ القوافي بما جرى لصاحبِه، سرت في نفسه الشفَقَة والعطف، وذهبتْ أحقَاده. وأنشد:

(بحر الكامل)

١ ذَهَبَ الرُّقادُ فَما يُحَسُّ رُقادُ   مما شَجَاكَ، وَنَامَتِ العُوَّادُ

٢ لمَّا أتاني عَنْ عُيَيْنَةَ أَنَّه   أَمْسَتْ عليه تَظاهَرُ الأَقيادُ

٣ نَخَلَتْ له نفسي النصيحةَ إنه   عند الشَّدائدِ تَذْهَبُ الأَحقادُ

[1] عوف (ويقال له عويف) بن معاوية ابن عقبة، الفزاري، شاعر من أشراف قومه في الكوفة. اشتهر في الدولة الأموية بالشام، ومدح الوليد وسليمان ابني عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز. وسمي "عويف القوافي" بسبب بيتٍ قالَه. توفي تقريبا سنة (١٠٠هـ)، وقد اشتهرت له هذه القطعة المنتخبة، وهي من أبيات ديوان الحماسة.



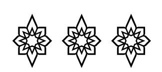


رُقية الحُب!

كانت أمُّ الضحاك المحاربيّة متزوّجةً برجلٍ مِن بني الضّباب، وكانت تحبّه حبّاً شديدا حتى تعلّق قلبها به، ثم إنه طلّقها! فحزنتْ حزنا شديدا، وأنشدَتْ فيه الأشعار، ومما أنشدته هذه القطعة التي تذكر فيها أنها استفتت المحبين قبلها، فَشرحوا لها دواءَ علّتِها:

(بحر الطويل)

١	سألتُ المحبّين الذين تحمّلوا	تباريحَ هذا الحُبِّ من سالفِ الدهر
٢	فقلتُ لهم: ما يُذهب الحبَّ بَعدَما	تبوّأ ما بين الجوانحِ والصّدرِ؟
٣	فقالوا: شفاءُ الحبِّ حبٌّ يزيله	لآخرَ، أو نأيٌ طويلٌ على هَجرِ
٤	أو اليأسُ حتى تذهلَ النفسُ بعدما	رَجَتْ طمعًا، واليأسُ عونٌ على الصّبرِ



وتبقى حزازات النفوس!

هرب زفر بن الحارث الكلابي[١] في وقعة مرج راهط، وترك القتال، وقال معتذرا عن هروبه عدة أبيات، منها:

(بحر الطويل)

١	أَيَذْهَب يومٌ واحدٌ إن أَسَأْتُهُ	بِصالحِ أَيَّامي وحُسْنِ بلائيا
٢	وَقَدْ يَنْبُتُ المَرْعى على دِمَنِ الثَّرى	وَتَبْقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيا

[١] زفر بن الحارث الكلابي، أبو الهذيل، أمير، كان كبير قيس في زمانه، شهد صفين مع معاوية أميرا على أهل قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري، وقُتِل الضحاك، فهرب زفر إلى قرقيسيا، وبها عياض، فمنعه عياض من دخولها، فقال له زفر بن الحارث: أوثّقُ لك بالطلاق والعتاق إذا أنا دخلت الحمام بها أن أخرج منها، فأذِن له فدخلها، فلم يدخل الحمَّام، وأقام بها وأخرج عياضا عنها، ولم يزل متحصنا فيها حتى مات، وكانت وفاته في خلافة عبد الملك بن مروان.





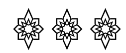
إن الشجا يبعث الشجا!

قَالَ مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَة[1]: (بحر الطويل)

١ لَقَدْ لامَني عِندَ القُبُور على البُكا ... رَفيقي لِتَذْرافِ الدُّمُوع السوافكِ

٢ فَقَالَ: أَتَبْكِي كل قبرٍ رَأَيتَه ... لِقَبرٍ ثوى بَين اللِّوى فَالدَّكادكِ

٣ فَقلت لَهُ: إِن الشَّجا يَبْعَثُ الشَّجا ... فَدَعْني، فَهَذَا كُلُّهُ قَبرُ مَالكِ!



فَكَشَّفَه التمحيص!

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر[2]: (بحر الطويل)

١ رأيتُ فُضيلا كان شيئا مُلَفَّفا ... فَكَشَّفه التمحيصُ حتى بَدَا لِيا

٢ أَأَنتَ أخي ما لمْ تَكُن لي حاجةٌ ... فإِنْ عَرَضَتْ أيقنتُ أَن لا أخا لِيا!

٣ كِلانا غنيٌّ عن أَخيه حَيَاتَه ... وَنَحنُ إِذا مُتنا أَشدُّ تغانيا

---

[1] متمم بن نويرة بن جمرة التميمي، أبو نهشل: شاعر فحل، صحابي، وكان من أشراف قومه، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك، ومن مشهور رثائه لأخيه، هذه القطعة المنتخبة في البرنامج، ومن مشهوره أيضا قوله:

وكنا كندماني جذيمةَ حِقبةً ** من الدهر، حتى قيل: لن يتصدعا!

فلما تفرقنا كأني ومالكـا ** لطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً مــــعا!

وسكن متمم المدينة، في أيام عمر، وتزوج بها امرأة لم ترضَ أخلاقه لشدة حزنه عل أخيه.

[2] عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، خرج بالكوفة في خلافة مروان بن محمد، فبعث إليه مروان جندا فلحق بأصبهان فغلب عليها وعلى تلك الناحية، واجتمع إليه قوم كثير، وذلك في سنة إحدى وثلاثين ومائة، ثم قتل، ويقال: بل هرب فلحق بخرسان، وأبو مسلم يدعو بها فبلغه مكانه، فأخذه فحبسه في السجن حتى مات، اشتهرت له هذه القطعة المنتخبة، ومنها البيت الشهير: وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ** ولكنَّ عينَ السخط تبدي المساويا.



فكأنها أحلام!

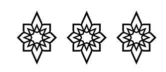
قال أبو تمام[١] (٢٣١هـ): (بحر الكامل)

١ ولقدْ أراكِ، فَهَلْ أَراكِ بِغِبْطَةٍ ... والعَيشُ غَضٌّ والزَّمانُ غُلامُ؟!

٢ أعوَامَ وَصْلٍ كادَ يُنْسِي طُولَها ... ذكْرُ النَّوى، فكأنَّها أيَّامُ

٣ ثُمَّ انْبَرَتْ أَيَّامُ هَجْرٍ أَردَفَتْ ... بِجَوىً أَسىً، فكأنَّها أعْوَامُ

٤ ثمَّ انْقَضَتْ تلك السِّنونَ وأهلُها ... فكأنَّها وكأنَّهُمْ أحلامُ



حصاد السِّنين!

قال أبو نُواس[٢](١٩٨هـ): (بحر الكامل)

١ ولقد نَهَزْتُ مَعَ الغُواةِ بِدَلْوِهِم ... وَأَسَمْتُ سَرحَ اللَّحْظِ حَيْثُ أَساموا

٢ وَبَلَغْتُ ما بَلَغَ امرؤٌ بِشَبابِهِ ... فإذا عُصَارَةُ كُلِّ ذاكَ أثامُ!

---

[١] هو حبيب بن أوس الطائي، أسلمَ وكان نصرانيا. من فحول الشعراء، كان أسمر، طوالا فصيحا، عذب العبارة مع تمتمة قليلة، وكان يتوقد ذكاء، سمع به المعتصم فطلبه وقدمه على الشعراء، وله فيه قصائد من أشهرها البائية في فتح عمورية. وكان يوصف بطيب الأخلاق والظرف والسماحة، وقد كان الشاعر البحتري يرفع من شأن أبي تمام، ويقدمه على نفسه ويقول: ما أكلتُ الخبز إلا به، وإني تابع له. جمع ديوان "الحماسة" فدل على غزارة معرفته وحسن اختياره. وقيل: كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب.

[٢] الحسن بن هانئ، لُقِّب بأبي نواس لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقيه -أي: تضطرب-.نشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد، فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، شعره في الذروة، قال شيخه أبو عبيدة: كان أبو نواس للمحدَثين كإمرئ القيس للمتقدمين. ويقال: ما رؤي أحفظ من أبي نواس، مع قلة كتبه. وله تهتُّك في شعر الخمر والغزل، وله أبيات مشهورة في الإنابة والمناجاة، قيل كتبها في آخر عمره.



أَنَفَة العِتاب

قال معن بن أوس المُزَنيّ[١]: [بحر الطويل]

١- لعَمرُكَ ما أدري -وإني لأوجَلُ- ... على أيّنا تَعدو المَنيّةُ أوّلُ

٢- وإنّيْ أخوكَ الدّائمُ العهدِ لم أَحُلْ ... إنَ ابزاكَ خصمٌ أو نَبا بكَ مَنزِلُ

٣- أحاربُ مَن حاربتَ من ذي عداوةٍ ... وَّأحبِسُ ماليْ إن غَرِمتَ فأَعقِلُ

٤- ستَقطعُ في الدُّنيا إذا ما قطعتَني ... يمينَكَ، فانظرْ أيَّ كَفٍّ تَبَدَّلُ!

٥- وفي النّاسِ إن رَّثّتْ حِبالُكَ واصلٌ ... وَّفي الأرضِ عن دارِ القِلَى مُتحوَّلُ

٦- إذا أنتَ لم تُنصِفْ أخاكَ وجدتَّهُ ... على طَرَفِ الهِجرانِ إن كانَ يَعقِلُ

٧- ويَركبُ حَدَّ السَّيفِ مِن أن تَضيمَهُ ... إذا لم يكن عن شَفرةِ السَّيفِ مَزحَلُ

٨- إذا انصرفتْ نفسي عن الشّيءِ لم تَكَدْ ... إليهِ بوجهٍ آخرَ الدّهرِ تُقبِلُ

---

[١] هو معْن بن أوس المُزَنيّ، شاعرٌ مجيد فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام. له مدائح في بعض الصحابة. وكان معاوية -رضي الله عنه- يفضّله ويقول: (أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى، وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن بن أوس). رحلَ إلى الشام والبصرة. وكُفّ بصرُه في أواخر أيامه. مات في المدينة عام ٦٤هـ وهذه الأبيات من مختار أبي تمام في «ديوان الحماسة» والبصريّ في «الحماسة البصرية».



فضيلة التَّغـافل

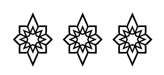
قال الشريف الرضي (٤٠٦هـ)[١]: (بحر الطويل)

١ وكمْ صاحبٍ كالرُّمحِ زَاغَتْ كُعُوبُه ... أبَى بَعدَ طُولِ الغَمزِ أنْ يَتَقَوّما

٢ تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظاهرًا مُتَبَلِّجًا ... وَأَدْمَجَ دُوني باطنًا مُتَجَهِّما

٣ وَلو أَنَّني كَشَّفته عَن ضَميرِهِ ... أَقَمْتُ على ما بينَنا اليومَ مَأتَما

٤ إذا العُضْوُ لَمْ يُؤلِمْكَ إلاّ قَطعَتَهُ ... على مَضَضٍ لم تُبْقِ لَحما ولا دَما



قبول المعاذير

قال أحدهم[٢]: (بحر البسيط)

١ اقبَلْ مَعاذيرَ مَن يأتيك مُعْتَذِرا ... إنْ بَرَّ عِندكَ فيما قالَ أو فَجَرا

٢ فَقَدْ أَطاعكَ مَن يُرضِيكَ ظاهِرُهُ ... وَقَدْ أَجَلَّكَ مَن يَعْصِيكَ مُستَتِرا

---

[١] محمد بن الحسين بن موسى من ذرية الحسين، وكان شيعيا، وهو نقيب الطالبيين ببغداد. قيل: هو أشعر الطالبيين. قال الذهبي: له كتاب (معاني القرآن) ممتع يدلُّ على سَعَة عِلمه. مات وله سبع وأربعون سنة. ولزكي مبارك كتاب عبقرية الشريف الرضي.

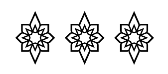
[٢] مُضْطَرِبا النسبة في المصادر، وقد ذكرهما ابن عبدربه الأندلسي (٣٢٨هـ) في كتاب العِقْد دون نسبةٍ لقائل.

وهو منطلق

قال جُؤَيَّة بن النَّضْر[1]: (بحر البسيط)

١ إنا إِذا اجْتمعتْ يَوْمًا دَراهِمنا ظَلَّتْ إِلى طُرقِ الْمَعْرُوف تَسْتَبِقُ

٢ لاَ يألَفُ الدِّرْهمُ المضْرُوبُ صُرَّتَنَا لكِنْ يَمُرُّ عَلَيهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ!



فليتق الله سائله!

قال أبو تمام[2] (٢٣١هـ): (بحر الطويل)

١ هوَ اليَمُّ مِنْ أَيِّ النواحي أَتيتَه فَلُجَّتُه المعروفُ والجودُ ساحِلُهْ

٢ تعوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حتى لوَ انَّهُ ثَناها لِقَبْضٍ لمْ تُجبهُ أنامِلُهْ

٣ ولو لم يَكنْ في كَفِّهِ غَيرُ رُوحِهِ لجادَ بها، فَلْيَتقِ اللهَ سائلُهْ

---

[1] شاعر إسلامي متقدم، ترجمته شحيحة، وهذه القطعة المنتخبة هي ضمن أربعة أبيات اختارها أبو تمام في ديوان الحماسة.

[2] هو حبيب بن أوس الطائي، أسلمَ وكان نصرانيا. من فحول الشعراء، كان أسمر، طوالا فصيحا، عذب العبارة مع تمتمة قليلة، وكان يتوقد ذكاء، سمع به المعتصم فطلبه وقدمه على الشعراء، وله فيه قصائد من أشهرها البائية في فتح عمورية. وكان يوصف بطيب الأخلاق والظرف والسماحة، وقد كان الشاعر البحتري يرفع من شأن أبي تمام، ويقدمه على نفسه ويقول: ما أكلتُ الخبز إلا به، وإني تابع له. جمع ديوان "الحماسة" فدل على غزارة معرفته وحسن اختياره. وقيل: كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب.



كان السُّلَيكُ بن عمير التميمي أحدَ صعاليك العرب العدائين، وكان شاعرا فاتكا، يلقب بالرئبال، فخرج ذاتَ يومٍ فَقَتَله رجلٌ من خَثْعَم، فقالت أُمُّهُ السُّلَكةُ ترثيه:

(مجزوء المديد)

١	طافَ	يَبْغِي	نَجْوَةً	مِنْ	هَلاكٍ	فَهَلَكْ
٢	ليتَ	شِعْري	ضَلَّةً	أيُّ	شيءٍ	قَتَلَكْ؟
٣	أَمَرِيضٌ	لم	تُعَدْ؟	أَمْ	عَدُوٌّ	خَتَلَكْ؟
٤	كلُّ	شَيءٍ	قاتلٌ	حينَ	تَلْقى	أَجَلَكْ
٥	والمنـــــايا	رَصَـــــــدٌ		للفتى	حيثُ	سَلَكْ
٦	لَيـــــتَ	قَـــلبي	ساعةً	صبرَه	عنكَ	مَلَكْ
٧	لَيت	نَفسي	قُدِّمتْ	للمَنــــــايا		بَدَلـــــكْ



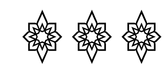
حَنَّكَتْه التَّجارِب

قال عبد العزيز بن زرارة الكلابي (٥٠ هـ)[١]: (بحر البسيط)

١ قَدْ عِشْتُ في الدَّهْرِ أَطوارًا على طُرُقٍ ... شَتَّى، فَصادَفْتُ مِنهُ اللينَ والفَظَعا

٢ كُلًّا بَلَوتُ فَلا النَّعْماءُ تُبْطِرُني ... وَلا تَخَشَّعْتُ مِنْ لأْوائِه جَزَعا

٣ لا يملأُ الهولُ صَدْري قَبلَ مَوْقِعِه ... وَلا أضيقُ بهِ ذَرْعًا إذا وَقَعا



أتعبتك المناظِر!

قال أحدهم[٢]: (بحر الطويل)

١ وكنتَ متى أَرسلتَ طرفَكَ رائدًا ... لِقَلْبِكَ يومًا أَتْعَبَتْكَ المناظِرُ

٢ رأيتَ الذي لا كُلُّه أنتَ قادرٌ ... عليه، ولا عن بَعْضِه أنت صابرُ

---

[١] هو عبد العزيز بن زرارة الكلابي قائد شجاع في زمن معاوية ~ كان فيمن غزا القسطنطينية، وأبلى في قتال الروم البلاء العجيب، ولم يزل يتعرض للشهادة فلم يقتل، فأنشأ ينشد هذه الأبيات المنتخبة: (قد عشت في الدهر..)، ثم حمل على من يليه فَقَتَلَ فيهم، وانغمس بينهم، فَشَجَرَه الروم برماحهم حتى قتلوه، فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه: هلك والله فتى العرب!

[٢] من أشعار ديوان الحماسة دون نسبة.





وتقتلنا المنونُ بلا قتالِ!

قال أبو الطيِّب المتنَبّي (٣٥٤ هـ)[١] قصيدةً في رثاءِ والدةِ سَيفِ الدولة، ومنها:

(بحر الوافر)

	الصدر	العجز
١	نُعِدّ المَشْرَفيَّةَ والعَوالي	وتَقْتُلُنا المَنونُ بِلا قِتالِ
٢	نَصيبُكَ في حَياتِكَ من حَبيبٍ	نَصيبُكَ في مَنامِكَ من خَيالِ
٣	رَماني الدّهرُ بالأرزاءِ حتَّى	فُؤادي في غِشاءٍ مِن نِّبالِ
٤	فَصِرْتُ إذا أصابَتْني سِهامٌ	تكَسّرَتِ النِّصالُ على النِّصالِ
٥	وهانَ فَما أُبالي بالرّزايا	لأنّي ما انْتَفَعتُ بأنْ أُبالي

---

[١] أحمد بن الحسين أبو الطيّب الْجُعفيُّ الكوفيِ المتنّبي الشاعر، قيلَ بأنه ادعى النبوة في أولِ شأنه ثم رجع عن ذلك فسمي بالمتنبي، وكان هو ينكر وُقوعَ ذلك، أَكْثَرَ المُقامَ بالبادية لاقتباسِ اللغة، ونظر في فنون الأدب والأخبار وأيّام الناس، وتعاطى قوْلَ الشعر في صِغَره حتى بَلَغَ فيه الغاية، ومدح الملوكَ، وفي شعره ما يوحي بأنه كان يبحث عن وِلاية، وسارَ شعره في الدنيا في حياته وبعد مماته، وله الأمثال السائرة والمعاني المبتكرة، قال ضياء الدين نصر الله ابن الأثير: سافرت إلى مصر ورأيت الناس يشتغلون بشعر المتنبّي، فسألت القاضي الفاضل، فقال: إنّ أبا الطيّب ينطق عن خواطرِ الناس! مات مقتولا وعمره إحدى وخمسون سنة، توسَّع الذهبي شَيئًا ما في ترجمته في تاريخ الإسلام.



قال أبو العلاء المعرّي[1] (٤٤٩ هـ) في رثاء أحد الفقهاء الأحناف:

(بحر الخفيف)

	الصدر	العجز
١	صاحِ هَذيْ قُبورُنا تملأ الرُّحْـ	ـبَ فَأَينَ القُبورُ مِنْ عَهْدِ عادِ
٢	خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنّ أَدِيْمَ الـ	أَرْضِ إلا مِنْ هَذِهِ الأَجسادِ
٣	رُبَ لحدٍ قَدْ صارَ لحدًا مِرارًا	ضاحِكٍ مِن تَزَاحُمِ الأَضدادِ
٤	تعبٌ كُلُّها الحياةُ فَما أَعْـ	ـجَبُ إلّا مِنْ رَّاغبٍ في ازْدِيادِ
٥	إنَّ حُزْنًا في ساعَةِ الموتِ أَضْعا	فُ سُرورٍ في ساعَةِ الميلادِ
٦	ضَجعة الموتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الـ	ـجِسْمُ فِيها والعَيشُ مِثْلُ السُّهادِ

[1] هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، الأعمى، أَضَرَّ بالجدري وله أربع سنين وشهر. صاحب التصانيف المشهورة في اللغة والأدب، كان ذكيا تام القريحة. قيل: يَحفظ كل ما مَرَّ بسمعه. لازم بيته، وسمى نفسه: رهين المحبسين للزومه منزله، وللعمى. وكان نباتِيًّا لم يأكل اللحم خمس وأربعين سنة. قال الذهبي: كان قنوعا متعففا له وقف يقوم بأمره، ولا يقبل من أحد شيئا، ولو تكسب بالمديح، لحصل مالا ودنيا، فإن نظمه في الذروة، يعدُّ مع المتنبي والبحتري. اتُّهِمَ في إيمانه ومعتقدِه، وفي شعره وترجمته ما يعضد ذلك، فلعله مَرَّ بمرحلة تردد وشك ثم رَجَع. ذبّ عنه بعض المعاصرين. انظر: "أباطيل وأسمار" لمحمود شاكر، و"أبو العلاء وما إليه" لعبد العزيز الميمني.

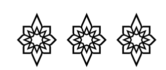


قال ابن الرومي[1] (٢٨٣ هـ): (بحر البسيط)

١ فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

٢ تَقُولُ: هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ ذَمَمْتَ تَقُلْ: قَيْءُ الزَّنَابِيرِ

٣ مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... حُسْنُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ



يمضي مع الرّيحِ!

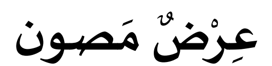
وقال: (بحر البسيط)

١ نارُ الرَّوِيَّة نارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... ولِلبَدِيهَةِ نارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

٢ وَقَدْ يَفضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِها ... لكنَّهُ عاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الريحِ

---

[1] علي بن العباس بن جريج الرومي، شاعر كبير هَجَّاء، من طبقة المتنبي موهبةً، روميُّ الأصل، كان جدُّه من موالي بني العباس، وَلِد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموما، قيل: دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد)، وكان ابن الرومي قد هَجاه، وقال ابن خلكان: صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها، ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقي فيه بقية. وأبرع ما اشتهر به ابن الرومي الوصف، وكان يغالي فيه العقاد ويقول: لست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعرا واحدا له من الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي. ومن أشهر شعره داليَّتُه في رثاء ولده محمد. قيل -في قصة موته-: إن القاسم بن عبيد الله الوزير كان يخاف من هجو ابن الرومي، فدس عليه طعاما مسموما فأحس بالسم، فوثب، فقال الوزير: إلى أين؟ قال: إلى موضعٍ بعثتني إليه. قال: سلِّمْ على أبي. قال: ما طريقي على النار! فبقي بعدها أياما، ومات. كتبت عنه بعض الدراسات المعاصرة نحو كتاب "ابن الرومي حياتُه من شِعره" لعباس محمود العقاد.



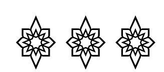
عِرْضٌ مَصون

نال أحد الشعراء من الشاعر عليّ بن الجهم بحضرة الخليفة المتوكّل وهجاه بأشعار باردة فلم يجبه، ثم قال علي بن الجهم[1] فيما بعد (٢٤٩هـ):

(بحر الوافر)

١ بَلاءٌ لَيسَ يُشبِهُهُ بَلاءٌ   عَداوَةُ غَيرِ ذي حَسَبٍ وَدينِ

٢ يُبيحُكَ مِنهُ عِرضا لَم يَصُنهُ   وَيَرتَعُ مِنكَ في عِرضٍ مَصونِ



فَيَا حَجَرَ الشَّحْذ!

قال ابن تومرت[2] (٥٢٤هـ): (بحر المتقارب)

١ أَخَذْتَ بِأَعْضَادِهِمْ إِذْ وَنَوا   وَخَلَّفَكَ القوم إِذْ أَسْرَعُوا

٢ وَأَصْبَحْتَ تَهْدِي وَلاَ تَهْتَدِي   وتُسْمِعُ وَعْظًا وَلاَ تَسْمَعُ

٣ فَيَا حَجَرَ الشَّحْذِ حَتَّى مَتَى   تَسُنُّ الْحَدِيدَ وَلاَ تَقْطَعُ

---

[1] علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن، رقيق الشعر، من أهل بغداد، كان قريبا من المتوكل العباسي، ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، وكتب إلى طاهر بن عبد الله أنه إذا ورد عليه صَلَبه يوما، فوصل إلى شاذياخ نيسابور، فحبسه طاهر، ثم أخرجه فصلبه مجرداً نهاراً كاملاً، فقال في ذلك قصيدة مطلعها:
لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الـ ** إثنين مغمورا ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم ** شرفا وملء صدورهم تبجيلا. وله القصيدة الدالية المشهورة في الحبس. خرج مرة يريد الغزو، فاعترضه فرسان من بني كلب، فقاتلهم، وجرح ومات من جراحه.

[2] محمد بن عبد الله بن تومرت البربري المصمودي خرج بالمغرب، ادعى أنه علوي حسني، وأنه الامام المعصوم المهدي، وسفك الدماء، أخذ عن أبي حامد الغزالي، وأبي بكر الطرطوشي، قال الذهبي: كان أمارا بالمعروف، نهاء عن المنكر، قوي النفس، زعرا



سُلَّمُ الرَّجاء

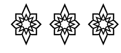
قال ابن خزيمة وغيره: حدثنا المزني قال: دخلت على الشافعي[1] (٢٠٤ هـ) في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبد الله! كيف أصبحت؟ فرفع رأسه، وقال: أصبحت من الدنيا راحلا، ولإخواني مفارِقا، ولسوء عملي ملاقيا، وعلى الله واردا، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها. ثم بكى وأنشأ يقول:

(بحر الطويل)

١ ولما قَسا قَلْبي وَضاقتْ مذاهبي ... جعلتُ رجائي دونَ عفوِك سُلَّما

٢ تَعاظَمَني ذنبي فلما قَرنتُهُ ... بعفوِك ربي كان عفوُكَ أعظما

٣ فَما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو مِنَّةً وتَكَرُّما



شكر يستوجب الشكر

قال محمود الوراق[2](٢٢٥هـ):

(بحر الطويل)

١ إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلِها يجب الشُّكْرُ

٢ فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بِفَضْلِهِ ... وإن طالتِ الأيامُ واتَّصل العُمْرُ

شجاعا، مهيبا قوالا بالحق.. وبكل حال، فالرجلُ من فحول العالم، رام أمرا، فتم له، وربط البربر بادعاء العصمة، وأقدم على الدماء إقدام الخوارج، ووجد ما قَدَّم.

[1] هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، الإمام، فقيه الدنيا، مجدد الدين، ناصر الحديث، مات أبوه ادريس شابا، فنشأ محمد يتيما في حجر أمه، أقبل على العربية والشرع فبرع في ذلك وتقدم، وحفظ شعر هذيل، ثم حبب إليه الفقه فساد أهل زمانه، وهو أول من جرد الكلام في أصول الفقه، ونصر طريق أهل الحديث، وثبت حجية خبر الواحد، والكلام في ترجمته ينبغي أن يطول ولا يملّ. انظر "مناقب الشافعي" للبيهقي. وقد كُتِبَت عنه دراسات معاصرة مفيدة منها "عبقرية الشافعي" لمشاري الشثري.

[2] محمود بن الحسن الوراق بغدادي، شاعر مجود، أكثر في شعره من المواعظ والحكم. روى عنه: ابن أبي الدنيا.





قال المتنبي[1] (٣٥٤ هـ): (بحر الكامل)

١ أبعين مفتقر إِليك نَظَرتني ... فأهنتني وقذفتني مِن حالِقِ

٢ لستَ الملومَ أَنا الملومُ لأنَّني ... أنزلتُ آمالي بِغَيرِ الخالِقِ[2]

---

[1] أحمد بن الحسين أبو الطيّب الْجُعفيُّ الكوفِي المتنّبي الشاعر، قيلَ بأنه ادعى النبوة في أولِ شأنه ثم رجع عن ذلك فسمي بالمتنبي، وكان هو ينكر وُقوعَ ذلك، أَكْثَرَ المُقامَ بالبادية لاقتباسِ اللغة، ونظر في فنون الأدب والأخبار وأيّام الناس، وتعاطى قوْلَ الشعر في صِغَره حتى بَلَغَ فيه الغاية، ومدح الملوكَ، وفي شعره ما يوحي بأنه كان يبحث عن وِلاية، وسارَ شعره في الدنيا في حياته وبعد مماته، وله الأمثال السائرة والمعاني المبتكرة، قال ضياء الدين نصر الله ابن الأثير: سافرت إلى مصر ورأيت الناس يشتغلون بشعر المتنبّي، فسألت القاضي الفاضل، فقال: إنّ أبا الطيّب ينطق عن خواطرِ الناس! مات مقتولا وعمره إحدى وخمسون سنة، توسَّع الذهبي شَيئًا ما في ترجمته في تاريخ الإسلام.

[2] قال ابن خلكان: كان الشيخ تاج الدين الكندي رحمه الله يروي للمتنبي هذين البيتين، وهما لا يوجدان في ديوانه، وكانت روايته لهما بالإسناد الصحيح المتصل به، فأحببت ذكرهما لغرابتهما. وينسبهما بعضهم لأبي الفرج صاحب الأغاني.

الفصل الثاني:

شرح المختارات.



شرح بيتي: (الغياب الموجع).

نُبِّئْتُ أنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَت ... واسْتَبَّ بَعْدكَ يا كُلَيْبُ المجلسُ

استبَّ المجلس: صار بَعْضُ أهل المجلس يسبُّ البعض.

يقول: نبئت أن نيران الضيافة أضرمت بعد غيابك، وأن أهل المجلس تداولوا الأحاديث بعد رحيلك، بل إنهم بالغوا في التخفف من الأعباء وفي اطراحِ الكلفة في أحاديثهم حتى صاروا إلى حالٍ يسبُّ فيها بعضهم بعضًا، فقد تشابهت المناكب وتساوت الرؤوس، وقد كانوا من فرط هيبتك وقوة تأثيرك لا يجرؤون على فعل شيءٍ من ذلك.

فقد كان كليب في حياته مهيبا لا يجسر أحدهم على الحديث بين يديه، ولا توقد مع ناره للضيفان نارٌ في حماه، إعظاما لقدره وإجلالا لشأنه، فيقول مُهَلْهِل على وجه التحسُّر:

وَتَكَلَّموا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ ... لو كنتَ شاهِدَهُم بِها لم يَنْبِسوا

لم ينبسوا: يُقال كلمتُه فما نَبَس، أي لم يتكلَّم بحرف.

تكلموا وخاضوا في الأمور الكبار، ولم يعد الكلام بينهم منتظما، ولو كنت شاهدا وحاضرا ما جسروا أن يتقدموا بين يديك بشيء من الحديث.



شرح أبيات: (دَبيب الكُسالى)

دَبَبْتَ للمَجْدِ والسَّاعون قد بَلَغُوا ... جَهْدَ النُّفوسِ وألقوا دونَه الأُزُرا

دببتَ: الدبيب هو المشي المتئد.

والساعون: جمع الساعي وهو الماشي بسرعة وجِد.

قد بلغُوا جَهْد النُّفُوس: أي بلغوا التَّعب والمشقة.

الأُزُرا: جمع إِزَار، وإلقاء الإزار كناية عن الاجتِهَاد فِي طلب الشَّيْء.

والمعنى أنك تدب دبيبا نحو المجد ومع ذلك ترجو أن تصل لمبتغاك، وغيرك بذل جهدا عظيما في السعي إليه، وألقى إزاره دون ذلك، فلن تكون مثله بحال من الأحوال.

فكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرهم ... وعانَقَ المجدَ مَنْ أَوفى وَمَنْ صبَرا

فكابدوا المجد: تحمَّلوا ما عرض لهم في سبيلِ تحقيقه.

وعانق المجد: حققه ووصل إليه.

مَن أوفى: مِن الوَفَاء.

وَمن صَبرَ: أي على الشدائد والصعاب التي عرضت دونه.

والمعنى أن المجد الذي دببت إليه، اجتهد آخرون في طَلَبِه، وأكثر هؤلاء الذين اسعوا واجتهدوا مَلُّوا أيضا وتوقفوا، ولم ينل المجد إلا أهل الصَّبْر على الشدائد.

لا تحسَبِ المْجدَ تمرا أنتَ آكلُهُ ... لن تبلغَ المجدَ حتى تَلْعَقَ الصَبِرا

وَالصَّبِر: بِكسر البَاء عصارة شَجَر مُرّ.

والمعنى: لا تتوهَّم أن تحصيلَ المجد سهل يسير يُنال بملازمة وسائد الراحة، والتقلب على المضاجع في الفرش الوثيرة، فإنه لن يُنال إلا بتحمُّلِ المشاقّ وتجرُّع المرارات والصبر على هذا الطريق.

❖ استشهاد لطيف:

قال أبو نصر هارون بن موسى: كنا نختلف إلى أبي علي القالي -رحمه الله- وقت إملائه النوادرَ بجامع الزهراء، ونحن في فصل الربيع، فبينا أنا ذات يومٍ في بعض الطريق إذ أخذتني سحابة، فما وصلت إلى مجلسه -رحمه الله- إلا وقد ابتلَّتْ ثيابي كلُّها، وحَوَالَي أبي علي أعلامُ أهلِ قرطبة، فأمرني بالدنوِّ منه وقال لي: مهلا يا أبا نصر! لا تأسف على ما عرض لك! فهذا شيءٌ يضمحلُّ عنك بسرعةٍ بثياب غيرِها تبدِّلها، ولقد عرض لي ما أبقى

بجسمي ندوبًا تدخل معي القبرَ، ثم قال لنا: كنت أختلف على ابن مجاهد رحمه الله فأدلجت إليه لأتقرَّبَ منه. فلما انتهيتُ إلى الدرب الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ألفيته مغلقا ورَاثَ (أي تعسَّر) عليَّ فتحُه. فقلت: سبحان الله أبكر هذا البُكور، وأُغلب على القرب منه؟!

فنظرتُ إلى سربٍ بجنب الدار فاقتحمته، فلما توسطته ضاق بي، ولم أقدر على الخروج ولا على النهوض، فاقتحمتُه أشدَّ اقتحامٍ حتى نفذتُ بعد أن تخرقتْ ثيابي، وأثر السَّرَبُ في لحمي حتى انكشف العظم، ومنَّ الله علي بالخروج، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال. فأين أنت مما عرض لي؟ وأنشدَنا:

دَبَبْتَ للمَجْدِ والسَّاعون قد بَلَغُوا *** جَهْدَ النُّفوسِ وألقوا دونَه الأُزُرا

فكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرهــم *** وعانَقَ المجدَ مَنْ أَوفى وَمَنْ صبَرا

لا تحسَبِ الْمجدَ تمرا أنتَ آكلُـهُ *** لن تبلغَ المجدَ حتى تَلْعَقَ الصَبِرا

قال أبو نصر: فكتبناها عنه من قبل أن يأتي موضعها في نوادره، وسَلَّاني بما حكاه، وهان عندي مَا عَرَضَ لي من تِلكَ الثياب، واستكثرت من الاختلاف إليه، ولم أفارقه حتى مات رحمه الله.



وفتيانِ صدقٍ لَسْتُ مطلعَ بعضِهِم — على سِرِّبعضٍ غيرَأَني جِمَاعُها

وفتيانِ: بالجر، والتقدير: وربَّ فتيانِ.

وأضاف الفتيان إلى الصدقِ، كما يقال: فتيان خير، والمعنى أنهم صادقون في مودتهم.

فيقول: ربَّ فتيانٍ استودعوني أسرارهم، وجعلوا فؤادي موئلَها، لا أطلعُ بعضَهم على أسرارِ بعضٍ.

جِماعها: الجِماع: اسم لما يجمع به الشيء، أي جِماع الأسرار.

لكلِّ امرىءٍ شِعْبٌ منَ الْقَلبِ فارغٌ — وموضعُ نجوى لا يُرامُ اطِّلاعُها

أي لكل واحدٍ من هؤلاء الفتيان موضع في قلبي قد فُرّغ له، وخُصَّ بموضع سِرّه ونجواه.

يَظَلُّونَ شتى في البلاد، وسرُّهم — إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انْصداعُها

يظلون شتى في البلاد: أي يغيبون عنه، ورغم ذلك يبقى سرهم في موضِعه مكتوما لا يَرِيم ولا يَبرح، فلا يحمله ابتعادهم عن ناظريه على الإفضاء بما استودعوه من أسرار، كأن سِرَّهم أُودِعَ صخرة صمَّاء قوية أعجز الرجال صَدْعَها وشَقَّها لو أرادوا ذلك.

وقوله: (إلى صخرة) أي هو مضمومٌ إلى صخرة.





شرح أبيات: (مقابر المحاسن)

إن يسـمعوا رِيبةً طاروا بها فَرَحًا ... مِنِّي، وما سمعوا من صالحٍ دفنوا

مِنِّي: أي من جهتي.

يقول: إذا سمعوا عنِّي سيئة طاروا بها فرحا، وأشاعوها في الأقطار، وأذاعوها في الأمصار، وإذا سمعِوا حسنةً منسوبة إلي كتموها ودفنوها كيلا يراها أحد من الناس.

صُمٌّ إذا سـمعوا خيرا ذُكِرتُ به ... وإنْ ذُكِرتُ بِــشَرٍّعِنْدَهـم أَذِنوا

صُمٌّ: أي هم صُمٌّ، أَذِنوا: اسْتَمَعوا. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ ﴾ [الإنشقاق: ٢]، أي: استمعت لربها، وحُقَّ لها أن تَسْتَمِعَ وتُطِيع.

أي هم يظهرون الصَّمَم إذا سَمعوا محاسِني، ويقال للمعرض عن الشيء: هو أصمٌّ عنه.



شرح أبيات: (فليتك تحلو!)

إذا الخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إلاّ مَلالَةً　　　فَلَيْسَ لهُ إلا الفراقَ عتابُ

إذا هجرَك خَلِيلُكَ بلا سبب يقتضي ذلك إلا الملل والسآمة؛ فلا خير لك في صُحبته، ولا ينفع في معاتبته إلا فراقُه!

وهذا المعنى متوارد عند الشعراء، قال بشار:

إِذَا كان ذوّاقا أخوك منَ الهوى　　　مُوجَّهَة في كلِّ أوب رَكَائبُه

فَخَلّ لَهُ وجه الفِرَاق وَلاَ تَكُن　　　مَطِيَّة رَحَّالٍ كَثيرٍ مَذاهبُهْ

بِمَن يَثِقُ الإنسانُ فيما يَنوبُهُ　　　ومِنْ أينَ للحُرِّ الكَريم صِحابُ؟

وإلّا فمَن الصاحبُ الذي يوثق فيه حين تنزل النازلة! ومن أين يجد الحُرّ صِحابا أصفياء؟!

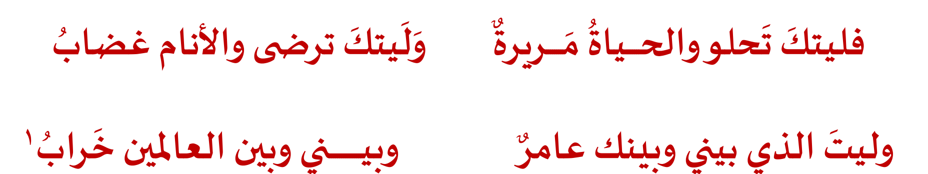
وَقَدْ صَارَ هَذَا النّاسُ إلاّ أقَلَّهُمْ　　　ذِئابا على أَجسادِهِنَّ ثيابُ!

فإن الناس قد أمسوا -إلا قليلا منهم- ذئابا تتقنّع بأقنعة البشر! فلستُ أجازي كل واحد من هؤلاء الذئاب بصنيع، وقد روي عن سهل بن حنيف أنه قال (قال أبي لأنس بن مالك: "يا خال، إن الناس ليسوا بالناس الذي كنت تعهد، إنما هم الذئاب عليهم الثياب فاحذرهم").

وما كلُّ فَعّالٍ يُجازى بِفِعْلِهِ　　　ولا كُلُّ قَوالٍ لَديَّ يُجابُ

وربَّ كلامٍ مَرَّفوقَ مَسامِعي　　　كما طَنَّ في لَوحِ الهجيرِ ذُبابُ!

ولربما أثقلَ أحدُهم عليّ بالكلام الفاحش والسباب البذيء، فلم أعرْه اهتماما، ولم أمنحه جوابا، ومرّ كلامُه فوق مسامعي كَما يمرُّ طَنين الذُباب في شدّة الحرّ



فليتكَ تَحلو والحـياةُ مَـريرةٌ   وَلَيتكَ ترضى والأنام غضابُ

وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ   وبيـــني وبين العالمين خَرابُ[1]

فليتك - أيها الخلّ - تحلو، ولا أبالي بمُرِّ الحياة بعد ذلك، وليتك - أيها الصفيُّ - ترضى، وكل غضبٍ غير غضبك فهو هيّن.

وهذان البيتان الأخيران في هذه القطعة متوجهان لسيف الدولة على وجه الخصوص، وفيهما نوعُ مبالغةٍ وخروجٍ عن المعتاد في مخاطبة البشر، لذلك كثيرا ما يستعملان عند الناس في باب الابتهال إلى الله تعالى والركون إليه، لاسيما حين يستحوذ على أحدهم شعور الخذلان من الناس واليأس من تحصيل رضاهم، وقلَّما استشهد بهما أحد في هذا الغرض الشريف إلا وجد سلوانا وبردا في قلبه.

ومِثْلُهُما قولُ المتنبي في حقِّ سيف الدولة:

يا من ألـــوذ به فيما أؤمله *** ومــن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره *** ولا يهيضون عظما أنت جابره

قال ابن كثير -رحمه الله-: بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق، ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالى. وأخبرني العلامة ابن القيم رحمه الله أنه سمع شيخ الإسلام يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع.

---

[1] وهذه من أشهر قصائد أبي فراس الحمداني تلك التي كتبها وهو في الأسر عند الروم، وهي ما اصطلح المؤرخون قديما وحديثا على تسميتها بالقصائد (الروميَّات)، وقد كُتبت الدراسات المفردة عن تلك القصائد على وجه الخصوص: في بيان خصائصها، وشرح أثر الأسر على نفسية أبي فراس وشعره الروميّ المتقلِّب ما بين إقبال نفسه وإدبارها، ويأسها ورجائها، وطمعِهِ في سرعة الفداء من الأسر وما يصاحب ذلك من المبالغة في التودد والتلطف لابن عمه، ثم هيمنة الشعور بالخيبة والخذلان من الناس، وما يصاحب ذلك من ذمهم والزهد في مصاحبتهم، مع حضور واضح لنفسية القائد الجريح المخذول في الأسر، ومداواة تلك الجراح الراعفة بالركون إلى غرض الخيلاء والفخر، وغير ذلك من الأغراض والمعاني المتعددة، وهذه الأبيات المنتخبة في نصاب اليوم من أشهر تلك (الروميات).







إذا ما وَصَفْتَ امرأً لامرئٍ　　　فَلا تَغْلُ في وَصْفِه و اقصِدِ

إذا وصفت امرأً غائبا فلا تبالغ في الثناء عليه، وعليك بالتوسط والاعتدال في ذلك، لأن زيادة الثناء تأتي بنقيض المقصود كما سيتبين.

فإنَّك إن تغلُ تغلُ الظُّنو　　　نُ فيهِ إلى الأمَدِ الأَبعدِ

إنك إن غلوت فيه غَلَت الظنون البشرية وجنحت التوهمات النفسية فيه إلى مدى بعيدٍ يتجاوز حقيقتَه، فإذا حضر وشوهِدَ طفقت النفوس تطالبه بما هو خارجٌ عن طاقَتِه، فكان ذلك المدح وبالا عليه، فالمدح الزائد يبطل سحر الدهشة، ويجعلك تتطلب المزيد مهما كانت حقيقة الممدوح، وإذا تكلم المرء بما يحسن دون أن تثار حوله جعجعة مديح مسبقة؛ انتزع الإعجاب وأثار الانبهار.

فينقُصُ مِن حيث عَظَّمْتَه　　　لفَضلِ المغيبِ على المشهدِ

فَيَحْصُل خلافَ مقصودِكَ، وينقص قدره من جهة تعظيمك إياه، وذلك لأن الخبر عن الغائب يكون فوق حقيقة الحالِ في العادة.

ولهذا المعنى يتحاشى كثيرٌ من الأذكياءِ أن يأخذَ الناسُ عنه انطباعا كاذِبا ولو كان مَدحا، وذلك لمعرفته العميقة أن النَّاس بِقَدْرِ ما يرفعون المرءَ فوق مرتَبته، فإنهم إذا لم يجدوا في الواقع ما يصدِّق تلك الانطباعات المتوهَّمة فإنهم يقفزون فورا إلى الشطّ الآخر، ويبالغون في خَفْضه وحَطِّه حتى عن مَرْتبته الحقيقيَّة، فَبِقَدر الارتفاع الكاذب يكون الإسقاطُ الجائر، وقد أشار إلى هذا المعنى الدقيق أبو عبد الله ابن القيم -رحمه الله- فذكر أن (مِنَ المدحِ ما يكون ذَما وموجِبا لسقوط مرتبة الممدوح عند الناس، فإنه يُمْدَح بما ليس فيه فتطالبه النفوس بما مُدح به، وتظنُّه عندَه، فلا تجده كذلك فتنقلب ذَمّا، ولو تُرِك بغير مدحٍ لم تحصُلْ له هذه المفسدة).





وما في الأرض أشقى مِن محبٍّ ... وَإِن وجد الهوى حلوَ المــذاقِ

تــرَاهُ باكيــا في كل حِينٍ ... مَخَـــافَةَ فرقةٍ أَو لاشتـــياقِ

فيبـــكي إن نأوا شوقاً إِلَيْهِم ... ويبكي إن دنوا خوف الْفِــرَاقِ

فتَسْخَن عينُه عِنْد التـــنائي ... وتَسْــخَن عينُه عِنْد التــلاقِي

أكثر الناس يعانون من محبوباتهم أكثر من مبغوضاتهم، لذا قال أحد المحبين القدامى متألما ومصورا اتحاد النعيم والعذاب والحلاوة والمرارة في ذاتٍ واحدة:

أنتِ النَّعيم لقلبي والعذابُ له * فما أمرّكِ في قلبي وأحلاكِ**

وهذا كله في المحبوبات الدنيوية الفانية، فإنها كلما أوغلت في تلافيف الفؤاد كانت أشدّ ألما وأعظم أثرا، سواء ظفر المحب بالمحبوب أو لم يظفر به، وقد كان ابن تيمية -رحمه الله- يقول: (**فمن أحب شيئًا لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد، أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء**).

وهذه الأبيات الأربعة تفصِّل شيئا من هذا الشقاء الروحي للمحبين مع اختلاف الأحوال ما بين حال حصول المحبوب والظفر به، أو حال فقده والحرمان منه.

ومعنى تَسْخَن عينُه: أي تبكي، ويقال أنَّ دمعة الغمِّ حارَّة، وهو نقيض: قَرَّت عينُه.





شرح بيتي: (استسهال البدايات!)

الحبّ أوّل ما يكون لجـــاجة　　　تأتى به وتســـوقه الأقدار

حتّى إذا اقتحم الفتى لجج الهوى　　　جاءت أمورلا تطاق كبار

اختلف الناس في العشق، هل هو اختياريٌّ يسعى إليه العاشق بمحض إرادته، أم هو اضطراريٌّ ينفذ إلى القلب على حين غِرَّة ويحتل ضفافه على حين غفلة؟ إذ لا يتصور بعضهم كيف يسعى الإنسان بقدميه إلى ما فيه ذل نفسه وعذابها، فالعشق له تكاليف وتبعات -كما هو معلوم- تتنافى مع أنفة الروح الكريمة، وسموقها وشموخها واستقلالها وحريتها وإرادتها التامة، فالعاشق أبدًا مسلوب الإرادة على الإباء، مشلول القدرة على الاختيار، مدفوع دوما إلى أضيق الطرق، وهذا يتناقض جذريا مع معاني كرامة الروح وإبائها، وهذا أمرٌ يجده كل عاشق –وإن كابر- في أولِ خطوات طريقه فكيف بأواخره! فعزة النفس والتهالك على أعتاب مخلوق طريقان متوازيان لا يلتقيان!

عرض ابن القيم -رحمه الله- الخلافَ في هذه المسألة، ثم ذكر جوابا فصلا، وهو أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف، فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره.

وهذا جواب محكم، فهناك مرحلة اختيار وقبول وتحرر للإرادة يذكرها العاشق جيدا، لكنه كان في أثنائها يعبث بالجمر بأصابعه، ويموِّلُ قلبه بما سلبه الإرادة وحرية التصرف لاحقا، بعدها وجد نفسه في مرحلة توافد المتاعب الكبار، وشعر فيها أنه أمسى مسيرا لا مخيرا!

وقد أحسن العباس بن الأحنف في تصوير هاتين المرحلتين، وذكر أن أول الحب لَجاجةٌ من المحب، فيقال: لجَّ في غيِّه لجاجةً أي تمادَى، ثم بعد ذلك التمادي منه وَفَدَت عليه الأمور الكبار التي لا تطاق!



إنما أَنْفُسُ الأنيسِ سِباعٌ ... يَتَفارَسْنَ جَهْرةً وَاغْتيالا

أراد بالأنيسِ الناسَ، فجعل نفوسَ الناس مثلَ السِّباع الضارية، يفرسُ بعضها بعضًا إما مجاهرةً، وإما مخادَعَة ومخاتَلَة، كما تفعل السِّباع في الغابة.

مَنْ أَطاقَ الْتماسَ شَيءٍ غِلابا ... وَاغْتِصابا، لم يَلْتَمِسْهُ سؤالا!

الغِلاب: المغالبة. والاغتصاب: الأخذ بالقهر.

يقول: مَنْ قَدر على مرادِه بالغَصب والقوَّة، لم يطلبْه بالسؤال أو بالمخادَعة.

كُلُّ غَادٍ لحاجَةٍ يَتَمَنَّى ... أن يكونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبالا

الغدو في الأصل: الذهاب في وقت الغدوّ، وهو أول النهار، والمراد به في البيت: مطلقُ الذهاب، أيُّ وقتٍ كان.

والغضنفر والرئبال: مِنْ أسماء الأسد.

وقد كان الأستاذ محمود شاكر -رحمه الله- شديد الحفاوة والإعجاب بهذه الأبيات الثلاثة للمتنبي، ومن جملة ما كتب عنها: (أي دقة وأي هداية كانت لهذا الرجل الفذ الذي لو احتلْتَ على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلا في كلامه لأفسدْتَ معنى البيت وقوته وبيانه؟ فخذ مثلاً لفظ "الأنيس"، وتخيَّر ما شئت من حروف اللغة وضَعْهُ حيث وضع المتنبي لفظه، واقرأ وانظر وتدبر، هل يليق أو يسوغ أو يلين أو يستقر في مكانه من البيت؟ ضع مكانه "الإنس" أو "البشر" أو "الناس" أو "الأنام" أو ما شئت ، سواء استقام الوزن أو لم يستقم، تجدِ الفرقَ بين الاختيارين عظيما واسعا، فهو قد اختار اللفظ والبناء الذي يدل دلالة على المؤانسة والرفق والتلطف وإظهار المودة والظرف وحلاوة الشمائل ولين الطباع، ليَظْهر لك أنها تخفي تحت هذا كله طباعًا وحشيةً ضاريةً، مترفقة

حينا وباغية أحيانا، فمهَّدَ للصورة التي أرادها باللفظِ الذي لا يُسْتَغْنَى عنه في دِقَّةِ الصورة وحسن بيانها..).



شرح أبيات: (لذة السعي إلى الأماني!)

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوَصْلِ رَبُّه وفي الهجرِ، فهو الدَّهرَ يرجو ويَتَّقي

رَبُّه: صاحبه. والدهرَ: ظرف.

يقول: أحلى الهوى ما كان صاحبه شاكًّا بين الوَصْلِ والهَجْر، فالأماني عموما إذا تحقَّقَت في الواقع فَقَدَت كثيرًا مِن بريقِها وبهجَتِها، بخلافِ ما يتوهَّمه أكثر الناس من أن السعادةَ في تحقيق الأماني الدنيوية وحصولِها، والحقيقة التي يدركونها آخرَ المطاف هي أن السعادة الحقيقية تَكْمُن في السعي إلى تحقيق الأماني وهي تلوح من بعيد وتَتَمَنَّع، ثم تقترب شيئا فشيئا، فإذا حصلت وألِفها المرء خبا شيء من وَهَجِها المُتَخَيَّل، ولذلك يقول الشاعر المتقدم:

لولا اطِّرادُ الخيلِ لم تك لذةٌ *** فتطاردي لي بالوصال قليلا!

ولم أرَ كالألحاظِ يومَ رَحيلِهم   بَعَثْنَ بُكُلِّ القَتْلِ مِن كُلِّ مُشْفِقِ

الألحاظ: العيون. يقول: لم أرَ مثل صنيع العيون يوم رحيلهم، كيف اجتمع فيها القتلُ والشفقَة! وهذه هي عيون المحبوب المحبّ!

أَدَرْنَ عُيُونًا حائراتٍ كأنَّها   مُرَكَّبَةٌ أحداقُها فوقَ زِئبقِ

قيل بأن الضمير في (أدرن) لألحاظِ المودِّعات. وَرُوِيَ: (أدرنا) أي نحن أدرنا. فيقول: كنا نُقَلِّبُ عيونًا حائراتٍ عند وَدَاعِنا، لا تبصر شيئا مما دهانا من ألم الفراق، فكأن العيون من كثرة حركاتها وقلة استقرارها كأنما وضعت أحداقُها على الزئبق، فهي حائرةٌ لا تسكن، ودائبة لا تفتر.

عشيةَ يَعْدونا عنِ النَّظرِ البُكى   وَعَنْ لذَّةِ التَّوديعِ خوفُ التَّفرقِ

عشية: وقت العشيَّة، أي كانت هذه الحالة وقت العشية.

يَعْدونا: يمنعنا ويصدُّنا.

يقول: عشيَّة يصرفنا البكاء عن النظر إلى من نحب، والبكاء يمنع من النظر وَيُقَلِّصه، لأن الدمع يحول بين العين وبين ما تشاهِده، فيمسي الباكي كمن يرى من وراء زُجاجة محدّبة.

وعن لذة التوديعِ خوفُ التفرق: أي عشيةَ يعدونا ويصرفنا خاطر خوفِ الفراق عن لذة توديع الذين نحبهم.

(والأبيات الثلاثة الأخيرة في وَصْفِ لحظاتِ الوداع).



شرح أبيات: (ربما أفسد التمادي)

ما لِعينيْ كُحِلَتْ بالسُّهادِ　　وَلِجَنْبيْ نابِيًا عَنْ وِسادِي

السُّهاد: الأَرَقُ. نابيا من النَّبو: وهو العُلُوّ والارتفاع.

الوِسادُ: المِخَدَّةُ، وهو ما يوضع تحت الرأس.

يقول: ما بال عيني كأنها كُحِلَتْ بالسهرِ والأرق، فلا تكاد تذوق طعم النوم، وما بالُ جنبي مرتفعا قائما فلا يدع رأسي يستقر على الوِساد.

وقال: عينيْ. والمعنى العينان كلتاهما. وقال: جنبيْ: والمعنى الجنبان كلاهما.

لا أذوقُ النَّومَ إلا غِرارا　　مِثلَ حَسْوِ الطَّيرِ ماءَ الثِّمادِ

الغِرار: القليل. قال الأَصْمَعِيّ : غِرَارُ النوم قِلَّتُه.

الحسو للطائر كالشُّربِ للإنسَان، يقال: حسا يحسو حسوا، ولا يقال للطائر: شَرِبَ.

الثِّماد: الماء القليل الذي يكون في الحُفَر.

يقول: لا أذوق من النوم إلا مثلَ ما يحسو الطائر من الماء المجتمع في الحُفَر.

أَبتغيْ إِصلاحَ سُعْدَى بِجُهْدِي　　وهي تَسعى جُهدها في فَسادي

الجُهْد: الطاقة.

بهذا البيت دخل الأعرابي في تفسير سبَبَ شِكايته من اكتحال عينيه بالسهاد، ونبوّ جنبيه عن الوِساد، وهو أنه يبذل طاقته في السعي لما يصلح أحوال سُعدى، بينما هي بالمقابل تسعى في بذل طاقتها في فسادِ أحواله.



وربما يُفْهم من قوله: أنه يسعى في صلاحِ أحوالها، أن سُعدَى هي زوجة هذا الأعرابيِّ صاحب الأبيات، وأن سَعْيَه لصلاحِ أحوالها هو بأن تستقيم على ما يريده منها فتدومَ العِشرة بينهما، ففي هذه الحال يستقيم معنى سَعيه لصلاح أحوالها وصلاح أحواله في آن.

فَتَتَاركنَا على غيرِشيءٍ رُبَّما أفسدَ طولُ التَّمادي

التتارك: ترك بعضنا بعضا.

التمادي: التمادي في الأمر الإلحاحُ فيه، وطولُ الإقامة عليه.

يقول: تتاركنا وهجر بعضُنا بعضًا على غير اتفاقٍ بينَنَا فيما يصلحُ أَحوالَنا، أو تتاركنا على غيرِ سَبَبٍ مُوجِبٍ لهذا التتارك.

ربما أفسد طول التَّمادي: ربما تَطاول هذا التتارك بيننا وتمادى، فأَفَسد حالَيْنَا وجعل استصلاح الأحوال عسرا للغاية. فالعلاقة بين المحبين إذا تكدرت وتأخر استصلاحها فإنها تتعقد حبالها، ويعسر عودة مياهها إلى مجاريها، بعد أن شَقت المياه السابقة مجاري جديدة لها.

وهذا المعنى يشبه قول العباس بن الأحنف في اثنين جرى بينهما خلاف ولم يتصالحا:

إن التباعد إن تطاول منكما *** دبَّ السلو له فَعَزَّ المطلبُ

وربما قصد الشاعر الأعرابي بالتَّمادي معنى آخر، وهو أن تمادي صاحبته سُعدى في حالها هو الذي صدَّع بنيان العلاقة، وقَطَّعَ حِبال الوِصالَ، وأفسد الأمور.

والمعنى الأول أعمق، والثاني قريب. واللفظ يحتملهما.





شرح بيتي: (استبداد الشعور)

متى مَا يَسُؤْ ظَنُّ امرئ بِصَدِيقِهِ ... وللظنِّ أسبابٌ عِراضُ المسارِحِ

يُـصَدِّقْ أمورا لم يجئْه يَقينــها ... عليه، ويعشقْ سمعُه كلَّ كاشِحِ

المَسْرِح بِفتح الميم المرعى الذي تسرح فيه الدواب للرعي، وجمعه المسارح.

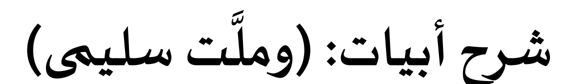
الكاشِح: العدو.

وكأنه شبه المرعى الذي ترعى فيه الدواب بالذهن الذي تجول فيه الخواطر والظنون.

يقول: إذا ساءَ ظنُّ المرءِ بصاحبه -وأسباب الظنِّ كثيرةٌ- فإنه يصدِّق عنه أمورا وأخبارا لم يتيقَّن من صِدقها ووقوعها، ويُرْخِي سمعَه لكلام كلِّ عدو كاشح لصاحبه، ولا يكتفي بمجرد السماع، بل إنه يأنس بذلك وتميل نفسه إليه، وَتَتَعَشَّقُه أُذُناه!

فكلما هبت نسائم الظنون السيئة استقرتْ في جوف تربة العلاقة بِذرة التصديق المجرّد من الدليل لكل قائل، ولذلك يقول أبو الطيب المتنبي:

إنما تنجح المقالةُ في المَر ... ءِ إذا صادفَت هوىً في الفؤادِ



أرى أمّ صخر لا تمل عيادتي *** وملّت سليمى مضجعي ومكاني

عيادتي : زيارتي.

يقول: أرى أم صخر ما تفتأُ ترعاني وتقوم علي في مرضي وتصلح من حالي، أما زوجتي سليمي فقد سَئِمَت من ذلك، ومَلَّتْ مَضجعي ومَكاني.

فأيّ امرئ ساوى بأمٍّ حليلةً *** فلا عاش إلا في أذى وهوان

حليلة: زوجة.

يقول: من كان يسوّي في المنزلة بين أمه وزوجته، ويقارب في الدرجة بينهما، فلا عاش إلا في أذى وهوانٍ، وأين الأم من الزوجة!

لَعَمْري لقد نَبَّهْتِ مَن كان نائما *** وأسمعتِ من كانت له أذنان

يعني لما قالتْ عنه: (لا حيا فيرجى، ولا ميتا فينسى!)، وحين ملَّت رعايته وعيادته.

فيقول: نَبَّهتِ بهذا الموقف الذي وَقَفْتِيه كلَّ أَحَدٍ حتى النائم، وأسمعتِ كلَّ من كانت له أذنان! وأراد بهذا الكناية عن كون موقف سليمى سيعتبر به كلُّ من بَلَغَهْ وعلِمَ به.

أَهُمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه *** وقد حيل بين العَيرِ والنَّزَوان !

العَير: حمار الوحش.

ونزوان العير: وثوبه على أنثاه.

يقول: أهم بقتلها وشفاء صدري منها لو أستطيع ذلك! ولكن قد أقعدني مرضي فحيل بيني وبين ذلك كما حيل بين العير والنزوان.

وقد أرسل الشطر الأخير مثلا، يضرب فيمن يحول بينه وبين مقصوده شيء.



وما كنت أخشى أن أكون جنازة *** عليكِ، ومن يغتر بالحدثان !

جنازة: قال الأصمعي وغيره: الجنازة بالكسر الميت، والجنازة بالفتح السرير .

والعرب تقول: هو عليه جنازة، إذا كان ثقيلا عليه.

الحدثان: مصدر حدث، أي ما يحدث من نوائب الزمان وصروف الدهر.

يقول: وما خشيت يوما أن أكون ثقيلا عليكِ، وما ظننت أن ذلك مكاني منك، ولكنَّ الناس يتبدل ودادُهم! ومن الذي يغتر بحوادث الزمان!؟



شرحِ أبيات: (زفرة والد)

غَذَوتُك مَولودًا، وعِلْتُكَ يَافِعًا ... تَعُلُّ بِمَا أُدْنِي إِلَيْك، وتَنْهَلُ

غذوتك: قُمْت بمؤنتك. وعِلْتك: كفلتك وأنفقت عليك.

اليافع: الغلامُ إذا شارَفَ البلوغ. تَنْهَل: النَّهَل هو الشرب الأول. والعَلَلُ: الشُّرْبُ الثَّانِي. يُقَالُ: عَلَلٌ بَعْدَ نَهَلٍ.

يقول: قمتُ بمؤنتك وَأَنت مَولُود، وكفيتك حاجاتك وقتَ شبابِك، وأخذتُ أدني إلَيك مَصالحك، فتأخذ مِنْها ما شئتَ مرةً بعد أخرى. يذكِّره بأفضالِه عليه لما رأى من تَنَكُّرِهِ وعُقُوقِهِ.

إذا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بالشَّكْوِ لم أَبِتْ ... لِشَكْـواكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلْمَلُ

التَّمَلْمُل: تقلُّب الإنسان على الفراش، لا يسكن ولا يستقر.

الشَّكْو: الشكوى.

يقول: كنتُ إذا أصَابك مَا يُؤْذِيك في ليلةٍ من الليالي، سَهِرَت عَيني فلا أذوق طعم النوم.

كَأَنِّي أنا المطروقُ دُونَك بِالَّذِي ... طُرِقْتَ بِهِ دوني فَعَيْنِي تَهمِلُ

كَأَني في تململي على فراشيْ، وسهريْ في تلك الليلة، وفيض عينيَّ بالدمع، أنا المصاب بما أصبتَ به، ولستَ أنت.

تخَافُ الرَّدى نَفسِي عَلَيْك، وَإِنَّهَا ... لَتَعْلَمَ أَن الْمَوْتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ

الردى الْهَلَاك. والحتم: الوَاجب الوقوع.

يقول: مع علمي أن الموت واقع حتما لكل أحد في نهاية المطاف، إلا أني كنت أحوطك وأخاف عليكَ منه، فهو يخاف عليه من الواقع حتْما، فكيف بغيره؟!

فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغايةَ الَّتِي  **إِلَيْهَا مَدَى مَا كنتُ فِيكَ أُؤَمِّل**

لما بلغت المرحلة التي تتعلق بك فيها غاية آمالي ومنتهى رجائي للفرح باكتمالك، والانتفاع بإحسانك:

جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفظاظةً **كَأَنَّك أَنْتَ المُنْعِمُ المتَفَضِّل**

هذا البيت هو جواب (لمَّا) في البيت الذي قبله، أي: لما بلغتَ المرحلةَ التي أؤملها، جعلتَ جزائي غلظةً وفظاظةً، كأنَّ الفضلَ لك والإنعامَ منك!

فَلَيْتَك إِذْ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُـوَّتي **فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المجاورُ يَفْعَلُ**

ليتني حين فاتني حق الأُبوَّة، ظَفِرْتُ مِنْكَ ولو بحقّ الِجوار!



شرح أبيات: (عند الشدائد تذهب الأحقاد)

ذَهَبَ الرُّقادُ فَما يُحَسُّ رُقادُ   مما شَجَاكَ، وَنامَتِ العُوَّادُ

العُوَّاد: جمع عَائِد، من العيادة.

يقول: طار عن عيني النوم بسببِ ما أَهَمَّكَ وَأَحزنك، وانفردت أنا بهذه الحال من بين الناس، فقد نام غيري من الذين كانوا يَعودُونك.

لـمَّا أتاني عَنْ عُيَيْنَةَ أَنَّه   أَمْسَتْ عليه تَظاهَرُ الأَقيادُ

تظاهر الأقياد: أي جَعَلوا عليه الأقيادَ بعضَها فَوق بعض.

ومنه ما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم: (ظَاهَرَ بين درعين يوم أحد) أي لبسهما فوق بعض.

نَخَلَتْ له نفسي النصيحـةَ إنه   عند الشَّدائدِ تَذْهَبُ الأَحقادُ

نَخَلَت لَهُ: أَي أخلصت لَهُ النصيحة، وَصَفَّتْها من الأكدار، والنصيحة: الصدق في المودة وعدم الغش.

يَقُول: لما أَتَانِي ذَلِك الْخَبَر عن صاحبي أذهب عني الرقاد، وزال مَا كَانَ فِي صَدْرِي من الغلِّ عليه، ومحضتُه النصحَ والوداد، فَإِن نيران المصائبَ تحرق أكوام الضغائن.

وهذا الشطر الأخير: (عند الشدائد تذهب الأحقاد) أرسله مثلا يُسْتَشهد به وحده، وتجده مسطورا في كتب الأمثال وغيرها.



سألتُ المحبّين الذين تحمّلوا ** تباريحَ هذا الحُبِّ من سالفِ الدهر

تباريح: التباريح هي الشدائد والمشاقّ، وتباريح الحبّ تكاليفُه ومشاقّه.

سالف الدهر: قديم الزمان.

تقول: سألتُ المحبّين الذين قاسوا شدائد الحبّ، وتحمّلوا تكاليفَه من قديم الزمان.

فقلتُ لهم: ما يُذهب الحبَّ بعدما ** تبوّأ ما بين الجوانحِ والصّدرِ

تبوّأ: نزل وأقام.

الجوانح: أضلاع الإنسان مما يلي صدرَه.

تقول: سألتُ أولئك المحبّين فقلتُ لهم: ما علاج العشق المستحكم؟ وما الذي يُذهب الحبّ وقد تمكَّنَ في قلبي؟

فقالوا: شفاءُ الحبِّ حبٌّ يزيله ** لآخرَ، أو نأيٌ طويلٌ على هَجرِ

نأي: بُعد.

تقول: فأجابوني بقولهم: شفاء الحبّ ثلاثةُ أمور: الأول: أن تبدلي الحبّ القديم بحبٍّ جديد يعمر قلبك، فالقلب إناءٌ لا يقبل الفراغ بطبعه، وإذا احتل شغافه شيء شغله عن غيره. والثاني: الهجر والإعراض والبعد مدة طويلة عن المحبوب وبواعثه.



أو اليأسُ حتى تذهلَ النفسُ بعدما ** رجت طمعاً، واليأسُ عونٌ على الصّبرِ

تذهل: تنسى وتنشغل.

أما الأمر الثالث: فاليأس من عودة الحبّ إلى سالف عهده، فإن اليأسَ غنى، وهو -كما تقول العرب: إحدى الراحتَين، وأما الطمع فهو ذلّ، وفي قطعِ رقبةِ الطمع، عون للإنسان على الصبر والسلوّ.



شرحِ أبيات: (وتبقى حزازت النفوس!)

أَيَذْهَب يومٌ واحدٌ إن أَسَأْتُهُ ** بِصالحِ أَيامي وحُسْنِ بلائيا

يقول: إن لي من حسن البلاء في الحروب، والصبر عند المواقف، ما لا ينكره أحد، أفيذهبُ هذا كلَّه ويُنسى لأجل يوم واحد هربتُ فيه؟!

وَقَدْ يَنْبُتُ المَرْعى على دِمَنِ الثَّرى ** وَتَبْقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيا

المرعى: يعني به النّبات الحسن المنظر، الطيب المطعم.

دِمَن الثّرى: الثّرى التراب، والدِمَن هو ما تخلّفه الماشية من أبوال وأبعار، فإذا نبَت موضعها كان خبيثاً فاسدا.

حزازاتُ النّفوس: جمع حزازة، وهي ما يحزّ في النفس من غيظ وغضب.

يقول: قد يصلح النبات الفاسد بعد خبثه، وتغسله الأمطار حتى يذهب ما فيه من الوباء، أما حزازات النفوس فلا يكاد يغسلها شيء، وإنما تبقى مستكنَّة في الفؤاد.





شرح أبيات: (فكأنها أحلام!)

ولقدْ أراكِ، فَهَلْ أَراكِ بِغِبْطَةٍ والعَيشُ غَضٌّ والزَّمانُ غُلاَمُ؟!

الغِبْطَة: السرور. الغَضُّ والغَضيضُ: الطريُّ.

يقول: هل سأبتهج برؤيتك ونحن في حياةٍ طريَّة هانئة، والزمان فيها سمح سهل في مقتبل أيامِه، والمقصود بكون الزمان غلاما أن الأحداث التي تقع في ظرف ذلك الزمان تكون مواتيةً لما نحب من دوامِ اللقيا وزوال المكدرات. وفي هذا المعنى يقول المتنبي:

أتى الزمان بنوه في شبيبته *** فَسَرَّهُم وأتيناه على الهرمِ

أعوَامَ وَصْلٍ كادَ يُنْسِي طُولَها ذكْرُ النَّوَى، فكأنَّهَا أيَّامُ

النوى: البعد.

يقول: هل أراكِ أيتها الدِّيار بغبطةٍ أعوامَ وَصلٍ طويلةٍ، حتى كاد يُنسي طولَها تذكرُنا للفراق الذي سيقع حتمًا بعدَها، فكأن تلك السنوات الطويلة بسبب ذلك التذكر أياما!

وقال الآمدي -في تفسير قِصَرِها-: (إنا كنا نذكر الفراقَ فَنُبادر السرور واللذات فكان ذلك يقصِّر من طولها، وأيام السرور على كل حال قصار، اعترض فيها خوف الزوال أو لم يعترض، وهذا من مشهور إحسان أبي تمام لفظا ومعنى).

ثُمَّ انْبَرَتْ أَيَّامُ هَجْرٍ أَردَفَتْ بِجَوىً أَسىً، فكأنَّها أعْوَامُ

انبرت: اعترضت وحلَّت. الجوى: الحرقة في القلب. أردف الشَّيءَ بالشَّيءِ: أتبعه به.

يقول: حَلَّتْ بنا أيام هجر بعد أيام الوصل، وبسبب ما انطوت عليه من الجوى والأسى كأنها أعوام.

ثمَّ انْقَضَتْ تلك السِّنونَ وأهلُها



تشبيه الحياة في سرعة انصرامها بالنوم والأحلامِ كثير عند الشعراء. ومنه قول التهامي:

فالعيش نوم والمـــنية يقظة *** والمرء بينـــهما خيال ساري

وقول المتنبي:

نصيبكَ في حياتك من حبيب *** نصيبك في منامك من خيالِ!



شرح بيتي: (حصاد السنين)

ولقد نَهَزْتُ مَعَ الغُواةِ بِدَلْوِهِم   **وَأَسَمْتُ سَرحَ اللَّحْظِ حَيْثُ أَساموا**

نهز الدَّلو في البئر: إذا ضرب بها في الماء لتمتلئ. أسامَ الماشية: أخرجها إلى المرعى. وإضافة سرح إلى اللحظ من إضافة الصفة إلى الموصوف، يعني تركت النظر السارح يرعى حيث رعوا.

والمعنى: شاركتُ الغواة في غيهم، وبلغتُ غاية سعيهم.

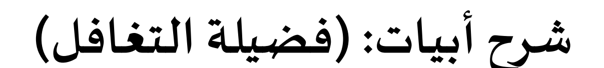
وَبَلَغْتُ ما بَلَغَ امرؤٌ بِشَبابِهِ   **فإذا عُصَارةُ كُلِّ ذاكَ أَثامُ!**

عصارة: خلاصة ونتيجة.

أثام: جزاء وعقوبة.

ما بلغ امرؤ بشبابه: في هذا الإبهام معنى لطيف جدا يستحسنه البلاغيون، والمقصود بلغتُ كل ما يخطر ببالك مما يمكن أن يبلغه الشاب من الغَوايةِ في شَبَابِه.

قال ابن الأثير: (وهذا كقول القائل: "لو رأيت عليا بين الصفين"، فإنه لو وصفه مهما وصف من نجدة وشجاعة وثبات وإقدام وأطال القول في ذلك لم يكن بمثابة ما يترامى إليه الوهم مع الإبهام، وهذا للعارف برموز هذه الصناعة وأسرارها، وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى: {فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ}.. فقوله: "وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه" من هذا النمط المشار إليه، وهو من المليح النادر).



شرح أبيات: (فضيلة التغافل)

وكمْ صاحبٍ كالرُّمحِ زَاغَتْ كُعُوبُهُ ... أبَى بَعدَ طُولِ الغَمزِ أنْ يَتَقَوّما

زاغَتَ: مالَتْ.

كَعْب الرمح: القصبة التي تعقِد الأنبوبين مع بعضهما في الرماح.

الغَمْزُ: تليين الرُّمحِ واستصلاحه. ويتقوم: أي يستقيم.

يقول: وكم صاحب لي حاولت استصلاحه زمنا طويلا فلم أستطع.

تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظاهرًا مُتَبَلِّجًا ... وَأَدْمَجَ دُوني باطنًا مُتَجَهِّما

المتبلج: المشرق والمضيء.

الإدماج: هو إدخال الشيء في الشيء.

يقول: تقبلت من صاحبي وجها ظاهرا مشرقا بالصِّدق في المودة، رغم علمي أنه أخفى عني وجها مختَلِفا عن هذا الوجه الذي أبداه.

وَلو أَنَّني كَشّفته عَن ضَميرِهِ ... أَقَمْتُ على ما بينَنا اليومَ مَأتَما

ولو أنني أبديتُ له علمي بما أخفاه، لأقمت مأتما وعزاءً على ما بيني وبينه من صداقة وإلفٍ، فإني رأيتُ أن أتغافل وأستبقيه مع وجود شيء من الخلل في مودته، فذلك خيرٌ عندي مِنْ مُكاشفتِه ثم خسارتِه كلِّه، وهذا يشبه قول النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمَّهُ *** على شَعَثٍ.. أيُّ الرجال المهذبُ؟!

وقولَ بشار:

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه *** مقارف ذنب مرة ومجانبه





إذا العُضْوُ لَمْ يُؤلِمْكَ إلاّ قَطَعتَهُ   على مَضَضٍ، لم تُبْقِ لَحما ولا دَما

إذا كان العضو من أعضائك كلما آلمك قطعتَه، فإنك لن تبقيَ لحمًا ولا دمًا في جسدك، فكذلك أصدقاؤك إذا كنت تبادر بالقطع والبتر لكل من وجدت منه شيئا من التقصير فلن يبقى لك أحد منهم.



شرح بيتي: (قبول المعاذير)

اقبَلْ مَعاذيرَ مَن يأتيك مُعْتَذِرا ... إِنْ بَرَّ عِندكَ فيما قالَ أو فَجَرا

فَقَدْ أَطاعكَ مَن يُرضِيكَ ظاهِرُهُ ... وَقَدْ أَجَلَّكَ مَن يَعْصِيكَ مُستَتِرا

اقبلْ عُذرَ من اعتذر إليك سواء صدق في اعتذاره أو كذب فيه، ولا تفتش وراء ذلك الذي أبداه لك، فَيَكْفيك منه أن أرضاك ظاهرُهُ، وأنه لا يخالفك إلا في السِّرِّ إجلالا لك.



إنا إذا اجْتمعتْ يَوْمًا دَراهِمنا ... ظَلَّتْ إلى طُرقِ الْمَعْـرُوف تَسْتَبِقُ

اشتكت امرأة هذا الشاعر إليه سرعةَ فَناءِ أموالهم، فقال لها: إن دراهمنا إذا اجتمعت تسابَقت إلى مسالك المعروف.

لاَ يألَفُ الدِّرْهمُ المضْرُوبُ صُرَّتَنَا ... لكِنْ يَمُرُّ عَلَـيهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ!

الدرهم المضروب: المسكوك أو المختوم. والدراهم المسكوكة هي التي كان الناس يتعاملون بها، وبالسكّ يتميز الدِّرهم الخالص من الدرهم المغشوش.

الصُّرَّة: يُحفظ بها الدراهم.

يقول: مِن كرمنا أن الدرهم لا يألف صُرَّتنا بل يمر عَلَيْهَا مرورا ثم ينطلق إلى سبل المعروف، فالدراهم لا تَستقر وتُخَلَّد إلا في صُرَّةِ البخيل.



شرح أبيات: (فليتق الله سائله!)

هوَ اليَمُّ مِنْ أَيِّ النواحي أَتَيتَه   **فَلُجَّتُه المعروفُ والجودُ ساحِلُهْ**

اليَمُّ: البَحْر لا يُدرَكُ قَعْرُهُ.

يقول بأنه كاليمِّ من أي ناحية تأتيه، فأعماقُ هذا البحر المعروفُ، وسواحلُ هذا البحرِ الجودُ.

تعوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حتى لوَ انَّهُ   **ثَناها لِقَـبْضٍ لمْ تُجبهُ أناملُهْ**

اعتاد مدَّ الكف بالعطاء طيلَةَ دَهْره، وبلغ به الحال لطول الإلف والاعتياد أنه لو حاول ثني الأنامل وقبضَها لاستعصت عليه ولم تطاوِعْه.

ولو لم يَكنْ في كَفِّهِ غيرُرُوحِهِ   **لجادَ بها، فَلْيـتَقِ اللهَ سائلُهْ**

ليتق الله سائل هذا الرجل الكريم، فإنه سيعطيه ما كان في يَدِهِ وإن غَلا ثمنه، ولو لم يكن في يده غيرُ روحه التي بين جنبيه لجاد بها.



شرح أبيات: (والمنايا رَصَدٌ!)

طافَ يَبْغِي نَجْوَةً … مِنْ هَلاكٍ فَهَلَكْ

يبغي: يريد ويطلب. النجوة: النجَاة.

تقول: خرج يبغي النجاة من كل هلاكٍ، فهلك في خروجه.

ليتَ شِعْري ضَلَّةً … أَيُّ شيءٍ قَتَلَكْ؟

ليت شِعري: ليت علمي، أو ليتني أعلم.

ضلة: ضلالة.

تقول: ليتني أعلم، فأنا ضللت ضلالة عن العلم بسبب موتك، أي سبب قتلك؟

أَمَرِيضٌ لم تُعَدْ؟ … أَمْ عَدُوٌّ خَتَلَكْ؟

ختلك: خدعك، وقتلك غيلة.

ودخلت بهذا البيت في بيان قولها: أي شيء قتلك؟

تقول: هل كنت مريضا لم يعدك ولم يتفقدك أحد؟ أم اغتالك عدو غدرا وخديعة؟

كلُّ شَيءٍ قاتلٌ … حينَ تَلْقى أَجَلَكْ

أرادت بهذا البيت الإعراض عن الاسترسال بذكر الأسباب، فانتقلت إلى بيان أن أسباب الموت واحدةٌ إذا انقضى العمر المقدَّر، وأن كل سبب قاتل إذا حان الأجل.



والمنايا رَصَدٌ 
للفتى حيثُ سَلَكْ

المنايا جمع منية وَهِي الْمَوت.

تقول بأن المنايا للفتى بالمرصاد أَينَمَا ذهب، فالطواف والتحول في البلدان وابتغاء النجاة لا يدفع الموت إذا حان الأجل.

لَيتَ قَلبي ساعـــةً … صبرَه عنكَ مَلَكْ

لَيت نَفسي قُدِّمتْ … للمَنـــايا بَدَلكْ

ليت قلبي يملك الصبر عنك ولو ساعة، أو ليت نفسي قدمت للموت بدل نفسك.



شرح أبيات: (حنكته التجارب)

قَدْ عِشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطوارًا على طُرُقٍ شَتَّى، فَصادَفْتُ مِنهُ اللينَ والفَظَعا

الفظع: الشدّة.

والمعنى عِشْتُ في دهري أطوارا على طرق مختلفة، فصادفت أياما رغيدة لينة، وأياما شديدة قاسية.

كُلًّا بَلَوتُ فَلا النَّعْماءُ تُبْطِرُني وَلا تَخَشَّعْتُ مِنْ لأْوائِه جَزَعا

بلوت: جَرَّبت وخَبَرت. البَطَر: الطغيان بالنعمة. اللأواء: الشدة والبؤس.

والمعنى عرفتُ كلا الحالين من لين وشدة، وبلوتُهما كليهما، فلم تُبطرني النعماء، ولا كسرتني وخَشَّعَتني جزعا اللأواء.

لا يملأُ الهولُ صَدْري قَبلَ مَوْقِعِه وَلا أضيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذا وَقَعا

يصف شجاعته ورزانته وصبرَه، فيقول: بلغ من ثبات قلبي أني أعلم أن الهول سيقع، فلا يملأ قلبي الخوف والقلق قبل وقوعه، ثم بلغ من صبري عليه أني لا أضيق به ذرعا بعد حلوله، وأكثر الناس يخافون من الهول قبل وقوعه، ويضيقون به ذرعا بعد حلوله.



شرح بيتي: (أتعبتك المناظِر!)

وكنتَ متى أَرسلتَ طرفَكَ رائدًا لِقَلْبِكَ يومًا أَتْعَبَتْكَ المناظِرُ

الرائد: الذي يتقدم القافلة ليتأمل حال الماء والكلأ. وجعل العين رائدا للقلب لأن القلب يتبع ما تراه العين فيستحسن ما تستحسن ويكره ما تكره

والمعنى أنك إن إذا أرسلت العين وأطلقتها كالرائد للقلب، فإن المناظر سترهقك لأن القلب تابع، والبصر قائد.

قال ابن القيم: العين رائد القلب، فيبعث رائده لنظر ما هناك فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله تحرك اشتياقا إليه، وكثيرا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده.

رأيتَ الذي لا كُلُّه أنتَ قادرٌ عليه، ولا عن بَعْضِه أنت صابرُ

وهذا البيت تفسير للتعب المذكور في البيت السابق، والمعنى: إذا أطلقت طرفك رائدا لقلبك أتعبتك المناظر لكونك سترى ما لا تقدر على الوصول إليه، وما لا تقدر على الصبر عنه، وإنما غاية ما ذلك الإطلاق أنك ستوقع نفسك في عذاب وضيق.

وقال بعضهم:

ألا إنما العينان للقلب رائــد *** فما تألف العينانِ فالقلب يألفُ

وقال المتنبي:

وأنا الذي جَلَبَ المنية طرفُه *** فَمَنِ المطالبُ والقتيل القاتل؟





نُعِدّ المَشْرَفيَّةَ والعَوالي   وتَقْتُلُنا المَنونُ بِلا قِتالِ

المشرفية: السيوف. العوالي: الرماح. المنون: المنية.

يقول: نعد السيوف والرماح للنِّزال والقِتال، ولكنَّ المنية تتجاوز هذا التهيؤ والاستعداد منَّا فتقتلنا على حين غفلة من غير قتال أو مدافعة.

نَصيبُكَ في حَياتِكَ من حَبيبٍ   نَصيبُكَ في مَنامِكَ من خَيالِ

نصيب الإنسان من وصال حبيبه في حياته كنصيبه من وصال خَياله وأحلامه في منامه، فكما ينقطع الخيال والحلم باليقظة، ويذهب كأن لم يكن، فوصال الحبيب ينقطع أيضا بالموت ويذهب كأن لم يكن، وهذا البيت يذكر العامَّة معناه كثيرا في عصرنا، فتجدهم يقولون عن لحظاتهم الجميلة الفائتة: كأنها حلم. وهو يشبه بيت أبي تمام السالف:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ** فكأنـــــها وكأنهم أحـــــلام

رَماني الدّهرُ بالأرزاءِ حتَّى   فُؤادي في غِشاءٍ مِن نِّبالِ

الأرزاء: جمع رزء وهو المصيبة. الغِشاء: ما يغطي الشيء ويستوعبه.

يقول: كأن قلبي من المصائب صار مُحاطا بغشاء من سِهام.

فَصِرْتُ إذا أصابَتْني سِهامٌ   تكَسّرَتِ النِّصالُ على النِّصالِ

النصال: جمع نصل، وهو الحديدة التي في السهم.

يقول: فصرت الآن إذا أصابتني مصائب جديدة لم تصل إلى قلبي، لعدم وجود موضع فيه يستوعبها، وإنما تتكسر نصالها على النصال التي قبلها.

وأشار الواحديُّ إلى معنى لطيف وهو معنى أن المصائب لما كثرت عليه تساقطت. فقال - في شرح البيت-: (هذا تمثيل معناه أن الأرزاء توالت علي حتى هانت عندي، والشيء إذا كَثُرَ اعتادَه الإنسانُ كما صرح بذلك المتنبي في البيت التالي).

وهانَ فَما أُبالي بالرّزايا لأنّي ما انْتَفَعتُ بأنْ أُبالي

هان: خفَّ.

قيل معناه: هان عليّ الدهر وما يقع فيه. وقيل: هان عليّ ما ألقاه، فأضمر الفاعل.

يقول: خف علي الأمر وصبرت وسلوت، فلا أبالي وأقلق من المصائب قبل وقوعها، ولا أجزع عند نزولها، لأني ما انتفعت بما بَاليتُ به قبلَ ذلك، فلم تدفع المبالاة والاهتمام عني شيئا من المقدور، ومنه قول بعضهم:

صبرت فكان الصبر خير مغبة *** وهل جزع أجدى عليَ فأجزع

وقد ذكر المتنبي هذا المعنى في قصيدة أخرى، فقال:

لا تلق دهرك إلاّ غير مكترثٍ ***ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يديم سرورٌ ما سررت به *** ولا يردّ عليك الفائـــــت الحزن





شرح أبيات: (خفف الوطء)

صاحِ هَذيْ قُبورُنا تملأ الرُّحْ ... بَ فَأَينَ القُبورُمِنْ عَهْدِ عادِ

صاحِ: يا صاحبي. يَدعو صاحبه، وحذف حرف النداء، ورخّم الصاحب.

الرُّحْب: بضم الراء. المكان المتَّسع.

والمعنى: يا صاحبي إذا كانت قبورُنا تملأ المكان المتَّسِعَ، فأين قبور السابقين قبلنا؟ فلا بد أنها اندرست واختلطت ببعضها.

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنّ أَدِيْمَ الـ ... أَرْضِ إلا مِنْ هَذِهِ الأَجْسادِ

الوطء: مشيك على الأرض. أديم الأرض: الأديمُ الجِلْد. والمقصود ظاهر الأرض.

يقول: خَفِّف مشيك وسعيك على الأرض فما أظنك تمشي إلا على أجسادٍ سالفةٍ دارِسَة.

رُب لحدٍ قَدْ صارَلحدًا مِرارًا ... ضاحِكٍ مِن تَزَاحُمِ الأَضدادِ

اللحد: الشَّق في جانب القبر.

يقول: رُبَّ لحدٍ يضحك ويتعجب من اجتماع الأضداد كالأبرار والفجار فيه.

تعبٌ كُلُّها الحياةُ فَما أَعْ ... جَبُ إِلَّا مِنْ رَّاغبٍ في ازْدِيادِ

تَعَبٌ كُلُّها الحياة: تقديره الحياةُ كلُّها تَعَبٌ.

وليس الوزنُ الشعري وحده هو الذي جعل المعرّي يقدِّمُ التَّعَبَ في صدر بيته، ويؤخر المبتدأ، فَفِي هذا التقديم اللطيف معنى مراد يستشعره السامع في توكيد معنى التعب والكَبَد في هذه الحياة. وتأمل الفرق بين قولك: الحياة كلُّها تعب. وقولك: تَعَبٌ كلها الحياة!

ومعنى البيت: الحياة كلها تعب، فما أشد تعجبي من أحوال الراغبين في الزيادة منها المتعلقين بها، فهم في حقيقة سعيهم لا يستزيدون إلا من التعب.

إنَّ حُزْنًا في ساعَةِ الموتِ أَضْعا   فُ سُرورٍ في ساعَةِ الميلادِ

مقدار الحزن على الإنسان في ساعة موته لا يعدل ولا يساوي مقدارَ السرور به في ساعة ميلاده.

ضَجعة الموتِ رَقْدَةٌ يَسْتَريحُ الـ   جِسْمُ فِيها والعَيشُ مِثْلُ السُّهادِ

الضَّجْعة: المرة الواحدة من الاضطجاع، والضِّجعة: هيئة الاضطجاع. السُّهاد: الأرق.

شبه الموت بحال النوم. وشبه العيش باليقظة. وفي تشبيهه هذا مخالفةٌ لما يذكره بعض الشعراء من تشبيههم العيش بالنوم، والموت باليقظة. وذلك نحو قول التهامي: (**فالعيش نوم والمنية يقظة**)، وما يُنسب لسهل التستري ولغيره: (**الناس نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا**)، وقد مرَّ بنا في هذه المختارات نظائر لهذا.

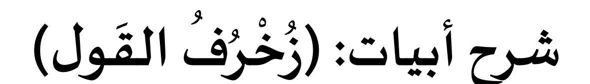
وليس في هذا التشبيه من أبي العلاء إنكارٌ لعذاب القبر كما قد يُتَوَهَّم أو يسبق إلى الذهن، فقد قال تعالى عن الكفار: {قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا} قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعدَه في الشدَّة كالرُّقاد.

وقد قال أبو العلاء قبل هذا البيت:

خُلِقَ النّاسُ للبَقَاءِ فضَلّتْ   أُمّـــةٌ يَحْسَبُونَهُمْ للنّفادِ

إنّما يُنْقَلُونَ مِنْ دارِ أعْما   لٍ إلى دارِ شِقْوَةٍ أو رَشَادِ





شرح أبيات: (زُخْرُفُ القَوْل)

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

زخرف القول: القول المُزيَّن المُمَوَّه المحسَّن.

والمعنى في تزيين القول وزخرفته تزيين للمعاني الباطلة المتضمنة فيه، والحق قد يعتري أصحابه سوء تعبير عنه.

وأراد ضرب مثال لزخرف القول، فقال:

تَقُولُ: هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ ذَمَمْتَ تَقُلْ: قَيْءُ الزَّنَابِيرِ

المُجاج بضم الميم الرِّيق الذي يمجه الإنسان من فيه. يقال: المطر مُجاج المزن، والعسل مُجاج النحل.

الزنابير هي الدبابير وواحد الزنابير: زنبور، وهو حشرة معروفة تشبه النحلة.

قال الدُّمَيري في حياة الحيوان: ربما سميت النحلة زنبورا. فعلى هذا يحمل معنى البيت، وهو أنه حين أراد مدح العسل وتزيينه في النفوس شبهه بمُجاج النحل، وحين أراد ذمه وتقبيحه شبهه بقيء الزنبور، وحقيقة العسل واحدة لم تتغير إلا في هذا الزخرف من القول.

مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... حُسْنُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

مدحا في العبارة الأولى حين قال: مجاج النحل. وذمّاً في الثانية حين قال: قيء الزنابير. ولم يتجاوز في العبارتين هذين الوصفين، والحقيقة واحدة.

وعلى العاقل أن ينتبه لهذا الجانب حين يحكم على الأقوال المنقولة، فكم من قول بَاطلٍ قبلته النفوس لعرضه بقالب جميل وصورة مقبولة، وكم صواب مجَّته النفوس لعرضه بقالب قبيح وصورة ممجوجة، ولذلك يقول ابن القيم -رحمه الله-: (إذا أردت الاطِّلاع على كُنْهِ المَعنى هل هو حقٌّ أو بَاطِلٌ فَجرِّدْه من لِبَاس العبارَة)، وذكر أبو حامد الغزالي

-رحمه الله- أن أقلَّ درجات العالم مما يتميز به العامي أن العالم (لا يعاف العَسَل، وإن وجده في محجمة الحجَّام)، والمقصود العناية بتمييز الحقائق وتوخي العدل في الحكم عليها، وعدم التأثر بالقوالب الخارجية.



شرح بيتي: (يمضي مع الرّيحِ)

نارُ الرَّويَّة نارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ   ولِلبَدِيهَةِ نارٌ ذَاتُ تَلْويحِ

الروية: إشباع الرأي والقول وطول النظر فيه. وبديهة القول: ما كان من غير طول تأمل. ويقال للرجل إذ وُصِفَ بسرعة الإصابة في الرأي: بديهتُهُ كَرَوِيَّة غيره.

وَقَدْ يَفضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِها   لكنَّهُ عاجِلٌ يَمْضي مَعَ الريحِ

يقول: يفضل أقوام نِتاجَ البديهة لعاجِلها وقربِ ثمرتها، لكن بسبب العجلة لا يكون لما يقولونه أو ينتجونه أثرا باقيا، وإنما هو يمضي وينطفئ مع هبوب الريح بخلاف نار الرويّة فإنها تدومُ، وتترك أثرا باقيا.

وقد كثرت مقارنات الشعراء وغيرهم بين الروية والبديهة، فقال الحطيئة:

فهذا بديه لا كتحبير قائل *** إذا ما أراد القول زوّره شهرا!

واجتمع مرةً ابنُ مناذر وأبو العتاهية، فقال أبو العتاهية: كم بيتا تقول في اليوم؟ قال: مقدار عشرة أبيات. فقال أبو العتاهية: فأنا أقول مائتين. فقال ابن مناذر: فإنك تقبل من شيطانك نحو:

ألا يا عتبة الساعة *** أموت الساعة الساعة

ولو أني أقولُ مثلَ ذلك لقلتُ ألوفًا من الأبيات!



بَـــلاءٌ لَيسَ يُشبِهُهُ بَلاءٌ ... عَداوَةُ غَيرِ ذي حَسَبٍ وَدينِ

الحسَبُ: الفِعالُ الجمِيلة للرجل وآبائه. وقال ابن السِّكِّيت: الحسب والكرم يكونان في الإنسان وإن لم يكن لآبائه شرف، ورجل حسيب كريم بنفسه. فَقَصَرها على شرف أفعال المرء وإن لم يكن لآبائه شرف.

يقول: من أعظم البلاء أن تعادي رجلا لا دين له ولا حسب، وكونه أعظم البلاء لأن هذا الرجلَ:

يُبيحُكَ مِنهُ عِرضًا لَم يَصُنهُ ... وَيَرتَعُ مِنكَ في عِرضٍ مَصونِ

أصل الرتع: الرعي في المرعى الخِصْب.

والمعنى أنه بالعداوة أباحك وأحلَّ لك عِرْضَه غيرَ المصون بالدِّين والحسب، وأنت حين عاديتَه وقاولتَه فتحت على نفسك الطريق ليأكل من لحمك، ويرتع في عرضك المصون بالدين والحسب. وهذا ما يجنيه الإنسان الفاضل من مجادلة الجهال ومقاوَلتهم ومشاتمتهم، والعاقل يختار أعداءه الذين يردُّ عليهم كما يختار أصدقاءه.



شرح بيتي: (فيا حجر الشحذ!)

أَخَذْتَ بِأَعْضَادِهِمْ إِذْ وَنَوا ... وَخَلَّفَكَ القوم إِذْ أَسْرَعُوا

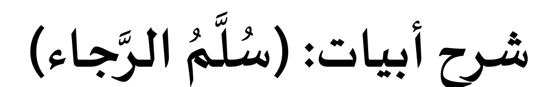
حين شَعَر الناس بالونى والتعب في طريق السير إلى الله أخذتَ بأعضادهم، وأحييتَ همتَهم، وأعنتَهم على المسير، ووصفتَ لهم الطريق، وحين سَلَكوا دربَ الهداية الذي وصفتَه لهم، وَجَدُّوا في السير فيه سبقوكَ وتركوكَ خَلفهم.

وَأَصْبَحْتَ تَهْدِي وَلاَ تَهْتَدِي ... وتُسْمِعُ وَعْظًا وَلاَ تَسْمَعُ

فَيَا حَجَرَ الشَّحْذِ حَتَّى مَتَى ... تَسُنُّ الْحَدِيدَ وَلاَ تَقْطَعُ

حَجَر الشَّحْذ أو المِسَنّ: يُسَنُّ به الحديدُ من السِّكِّين وغيرها.

يقول: أَشْبَهتَ حَجَرَ الشَّحذ حين أصبحتَ تهدي الآخرين وتصفَ لهم طريق الفلاح دون أن تسلكَه. ووجه الشبه أن حجر الشحذ يَسُنُّ القواطع من الحديد دون أن يَقطع، وأنت تهدي الآخرين دون أن تهدي نفسَك.



شرح أبيات: (سُلَّمُ الرَّجاء)

ولما قَسا قَلْبي وَضاقتْ مذاهـبي ... جعلتُ رجائي دونَ عفوِك سُلَّما

تَعـاظَمَني ذنبي فلـما قَرنتـــهُ ... بعفوِك ربي كان عفوُكَ أعــظما

فَما زلتَ ذا عفوعن الذنب لم تزل ... تجود وتـــعفو مِنَّةً وتكَــرُّما

هذه الأبيات قالها الإمام الشافعي رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، وهي مليئة بمعاني الرجاء وحسن الظن بالله تعالى والطمع بنيل رحمته ومغفرته، ومن كان في حال ارتحال عن الدنيا وإقبال على الآخرة كان تغليب الرجاء في فضل الله ورحمته أصلح لحاله، لاسيما إن كان من أهل الاستقامة، وقد كان الشافعي رحمه الله رأسا في بث العلم ولزوم السنة والعمل بها، لذا قال السفَّاريني بعد أن أورد هذه الأبيات: (**هذا حالُ السلف: رجاء بلا إهمال، وخوف بلا قنوط**).

وقال ابن القيم: (**حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور**).

وقد كان الصالحون يستصلحون قلوبهم ويمنحونها ما يقوِّمها من الرجاء أو الخوف، ومتى آنسوا منها انفلاتا لجموها بلجام التخويف ونصوص الوعيد، فإن استقامت على الطريقة وأقبلت على الطاعة دلقوا أبواب الرجاء والرحمة، فهم لا يقنطون من رحمة الله، ولا يأمنون مكر الله. قال ابن تيمية: (**والله عليم حكيم رحيم أمرهم بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم ثم إذا وقعوا في أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته بل جعل لهم أسبابا يتوصلون بها إلى رفع الضررعنهم، ولهذا قيل : إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله**).



شرح بيتي: (شكر يستوجب الشكر)

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً　　عليَّ له في مثلِها يجب الشُّكْرُ

فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بِفَضْلِهِ　　وإن طالتِ الأيامُ و اتَّصل العُمْرُ

المعنى هو أن نعمة الله على العبد تحتاج إلى شكر المنعم، وتوفيق العبد لأن يشكر نعمة الله عليه هي نعمة أخرى بحاجة إلى شكر، وهكذا تتسلسل النعم وتمتد فلا يمكن للعبد أن يبلغ الشكر الواجب عليه وإن طالت الأيام ولم تنقضِ، واتصل العمر ولم ينقطع، فلا ينتهي الشكر الواجب أبدا، وما للعبد إلا سعة فضل ربه تعالى. وقال الإمام الشافعي رحمه الله في مقدمة الرسالة: (**الحمد لله الذي لا يُؤدى شُكر نعمة من نِعَمِهِ؛ إلا بنعمة منه توجب على مؤدي ماضي نِعَمِه بأدائها نعمةً حادثةً، يجب عليه شكره بها**) وهو عين المعنى المذكور في البيتين.

وقد ذكر بعض الشعراء هذا المعنى بقوله:

لك الحـــــمدُ يا ربي على كل نعمة *** ومن جملة النعماءِ قولي: لك الحمدُ!

وقال تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) قال بعض المفسرين: الرزق هنا بمعنى الشكر. أي تجعلون شكركم تكذيبا. ولا شك أن الشكر والتوفيق إليه من أعظم الأرزاق والنعم.



أبعين مفتقرٍ إليك نَظَرتني   فأهنتني، وقذفتني مِن حالِقِ

لستَ الملومَ، أَنا الملومُ لأنَّني   أنزلتُ آمـــــالي بِغَيرِ الخالِقِ

الحالق: المكان المشرف المرتفع.

يقول: هل كنت حين نظرتني مفتقرا إليك هان عليك شأني، فأهنتني وخذلتني ولم تقضِ حاجتي، وقذفتني من مكان مرتفع حتى تحطمت آمالي على صخرة الخذلان؟ ليستِ الملامةُ عليك في شيء من ذلك، وإنما أنا الملومُ لأنني عَلَّقْتُ حِبالَ آمالي بغير الخالق سبحانه وتعالى. وهكذا لا يركن العبد إلى المخلوق ويعتمد عليه إلا ويُخذَلُ من جِهَتِه، وسائلُ الله تعالى لا يخذل ولا يخيب!

ذكر محمد بن عمر الرازي في تفسير مفاتح الغيب تجربته في هذا الشأن فقال: **(الذي جربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سببا إلى البلاء والمحنة والشدة والرزية، وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحدٍ من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه)**.

وقال الصرصري:

إذا انقطعت أطماع عبد عن الورى *** تعلَّــق بالرب الكـــــريم رجاؤه

فأصبـــح حُـــرًّا عِزَّةً وَقَنــاعــةً *** على وجـــهه أنواره وضـــــياؤه

وإن عَلِقَت بالخلق أطماع نفســـه *** تباعــد ما يرجـــو وطال عنـاؤه

فلا ترجُ إلا الله للخطب وحـــــده *** ولو صـحَّ في خِلِّ الصَّفاء صفاؤه



الفصل الثالث:

ملحقات تتعلق ببعض المختارات

وهو مشتمل على:

١. شرح مفصَّل لأبيات معن بن أوس، كتبه الدكتور فيصل المنصور.
٢. مقال (الشيء الملفَّف)، كتبه الشيخ علي الفيفي حول أبيات عبدالله بن معاوية.
٣. مقال (البرد المقعد)، كتبه الشيخ عثمان العمودي حول أبيات أم الضحاك المحاربية.
٤. مقال (فناء اللذة)، كتبتُه حول أبيات أبي نواس.
٥. مقال (صخرة الأسرار)، كتبتُه حول أبيات مسكين الدارمي.
٦. مقال (الغياب الموجع)، كتبتُه حول بيتي المهلهل بن ربيعة.



القصيدة[1]:

قال معن بن أوسٍ المُزَنيّ[2]: [بحر الطويل]

الصدر	العجز
١- لعَمرُكَ ما أدري – وإني لأوجَلُ -	على أيِّنا تَعدو المَنيّةُ أوّلُ
٢- وإنّيْ أخوكَ الدّائمُ العهدِ لم أَحُلْ	إنَ ابزاكَ خصمٌ أو نَبا بكَ مَنزِلُ
٣- أحاربُ مَن حاربتَ من ذي عداوةٍ	وَّأحبِسُ ماليْ إن غَرِمتَ فأَعقِلُ
٤- ستَقطعُ في الدُّنيا إذا ما قطعتَني	يمينَكَ، فانظرْ أيَّ كَفٍّ تَبَدَّلُ!
٥- وفي النّاسِ إن رَّثّتْ حِبالُكَ واصلٌ	وَّفي الأرضِ عن دارِ القِلَى مُتحوَّلُ
٦- إذا أنتَ لم تُنصِفْ أخاكَ وجدتَّهُ	على طَرَفِ الهِجرانِ إن كانَ يَعقِلُ
٧- ويَركبُ حَدَّ السَّيفِ مِن أن تَضيمَهُ	إذا لم يكن عن شَفرةِ السَّيفِ مَزحَلُ
٨- إذا انصرفتْ نفسي عن الشّيءِ لم تَكَدْ	إليهِ بوجهٍ آخرَ الدّهرِ تُقبِلُ

۞ مناسبة الأبيات:

كان معنٌ قد تزوَّج بأخت صديقه، فاتّفق أن طلقها معنٌ، فهجرَه صديقُه وحلَف لا يكلمه أبدًا، فقال معنٌ هذه الأبيات يعاتبه ويستعطفه.

۞ شرح الأبيات:

١- لعَمرُكَ ما أدري - وإني لأوجَلُ - على أيِّنا تَعدو المَنيّةُ أوّلُ

۞ التفسير[3]:

أ- اللفظ: **لَعَمْرك:** العَمْر بفتح العين معناه العُمر، أي مدةُ الحياة. ولا يُستعمَل في القسم إلا بالفتح. **أوجَل:** من الوجَل، وهو الخوف. ويجوز أن يكون في هذا البيت فعلًا مضارعًا، أي: وإني لأخافُ. أو أفعلَ تفضيل، أي: وإني لأخْوَفُ منك. وحذفَ (منك)، وهو جائز. أو صفةً مشبَّهة، أي:

---

(١) كتبتُ شرحَ هذه القصيدة استجابةً لطلب أخي الشيخ سليمان العبودي من أجل نشرها في قناة (مختارات شعرية للحفظ) على هذا الرابط: https://t.me/poetry_sn.

(٢) هو معْن بن أوس المُزَنيّ، شاعرٌ مجيد فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام. له مدائح في بعض الصحابة. كان معاوية يفضّله ويقول: (أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى. وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن بن أوس). رحلَ إلى الشام والبصرة. وكُفّ بصرُه في أواخر أيامه. مات في المدينة عام ٦٤هـ. وهذه الأبيات من مختار أبي تمام في «ديوان الحماسة» والبصريِّ في «الحماسة البصرية».

(٣) المراد به بيانُ ظاهر المعنى بشرح دلائل منطوقه إفرادًا وتركيبًا، أي بيانُ معنى ما قاله الشاعر باللفظ.



وإني لخائفٌ، فيكون بمعنى (وجِلٍ). وهو الراجح. ونظيره (أعمى) و(عمٍ)، غير أنهم لم يقولوا في مؤنثه: (وجلاء) كما قالوا: (عمياء).

ب- التركيب: جملة (وإني لأوجلُ) معترضة بينَ الفعل (أدري) ومفعولِه الذي هو جملةُ (على أيّنا تعدو المنية أوّلُ).

يقول: وحياتِك يا صاحبي لا أدري أيُّنا يفجؤه الموت قبل الآخر. وإني لخائف وجِلٌ من كلا الاحتمالين.

۞ التأويل[١]: أراد أن يقول لصاحبه: اعلمْ يا صاحبي أن حالنا لا تخرج عن أحد أمرين: فإمّا أن أموت قبلك، وإما أن تموت قبلي، فإن متُّ قبلك لم تلبث أن تندم على صرمك لي وزهادتك في إخائي، وذلك أن الموت من ما ينزع البِغضة ويقطع المنافسة ويوجب الشفقةَ ويدعو إلى التنويه بمآثر الميّت ويدلّ على حاقّ قدره وعلى مكانه الذي كان يسدّه ويملؤه. وقد ألمعَتِ الشعراءُ إلى هذا المعنى، فمنه قول تأبّط شرًّا:

لتقرعنّ علي السِّنَّ من ندَمٍ ... إذا تذكّرتَ يومًا بعضَ أخلاقي

وقولُ عَبيد بن الأبرص:

لا أعرفنّك بعد الموت تندُبني ... وفي حياتيَ ما زوّدتني زادي

وإن متَّ قبلي كان افتراقنا عن قِلًى لا ودَّ بعده، وعن هجرٍ لا وصل يمحو أثرَه، وعن سُخط لا مستعتَب منه، وكان آخرُ أمرنا بعد هذه العشرة الطويلة وهذا الإخاء الوثيق التدابرَ والشحناء، وإنما الأمور بخواتيمها. وإني لوجلٌ مشفق من كلا الأمرين اللَّذَينِ لا أدري أيُّهما يقع أولُ.

۞ النقد[٢]: أحسن الشاعر في استفتاحه القصيدةَ بهذا البيت، وذلك أنه ذكَّرَ صاحبه بفجاءة الموت ووشْكان الرحيل وحَتْم الافتراق، وأخَّرَ تعدادَ فضائله معه والتنويه بحسن بلائه وصدقِ إخائه إلى البيت الثاني، وذلك كي يستميل قلبه ويسكّن من نافر إقباله أوّلًا لأن للموت هيبةً ترتدع منها النفوس وتخشع لها القلوب. وعلِمَ أن ذكره هذا للموت مستلزمٌ للتذكير بسالف الإخاء، والتحذير من القطيعة والبغضاء. ولو ابتدأ الأبيات بعدِّ فضائله وشواهد أخوَّته لم يأمَن أن يَهيج ذلك صاحبَه فيغريَه بالمراء والمكابرة فيدافعَه عن بعض ما ادّعاه أو يوردَ عليه مثله أو أزيد منه.

ومن محاسنه أيضًا لُطف الاعتراض بقوله: (وإني لأوجلُ)، إذ نبّه بذلك على أنه خائف من كلا الأمرين: أن يموت صاحبُه قبله، وأن يموتَ هو قبل صاحبه. واحترس بذلك من أن يُظنّ أنه يودّ لو مات قبل صاحبه فيعرفَ قدرَه بعد موته ويندمَ على ما فرطَ منه في حقّه، أو يُظنّ أنه يودّ لو

---

[١] المراد به بيانُ باطن المعنى أو معنى المعنى أو ظلالِ المعنى، فهو تغلغلٌ إلى تعرُّف ما يريد الشاعر أن يقوله من ما لم يصوّره لفظه. وتأويل اللفظ في اللغة: تفسير ما يئول إليه معناه.

[٢] المراد به ذكرُ محاسن البيت ومساويه، و غُرره و عُرَرِه. وكذلك أصلُ معنى (النقد) في اللغة. ولفظَا (الغُرر) و(العُرر) في استعمال المتقدّمين قريبان من لفظَي (الإيجابيات) و(السلبيات) في كلام المحدَثين. وانظر «البيان والتبيين ٢/ ٢٢».



مات صاحبُه قبله استعجالًا لفراقه والتماسًا لنسيان ذِكَراته معه وتشفّيًا منه لسوء جزائه، بل هو خائفٌ أن يموت صاحبُه قبله فيخسرَ مودته، وخائفٌ أيضًا أن يموت قبل صاحبه فلا يعرف صاحبه قدرَه إلا بعد موته. والصُّلح أحبّ إليه، والتراضي آثرُ عنده. وفي هذا استرقاقٌ بالغ وتلطُّف بديع. ثم أحسن أيضًا الإحسان كلَّه بأن جعل هذه الجملة معترضة في جوف قوله: (ما أدري على أيّنا تعدو المنية أولُ) ليعرّف صاحبه من أول الكلام احتراسَه هذا ويبيّن له إشفاقه من نزول الموت بأحدهما وينفيَ عنه ما قد يسبِق إلى قلبه من توهّم رغبته في مفارقة أحدهما الآخرَ بالموت.

ومنه دقّة وصفه لمجيء الموت إذ جعله عدوانًا، وذلك قوله: (تعدو المنيّة)، فشبّهه في فجاءته وفي سرعة حلوله بالأسَد حين يعدو على فريسته وينقضّ في إثرها. ومعلومٌ لمن شاهد ذلك منه أنه يكون في غاية الفجاءة وسرعة الوثبة وعن تمام الاستخفاء وشدّة المخاتلة. ومن ذلك قول الفِند الزِّمّاني، في إحدى الروايتين:

مشَينا مِشية الليثِ عدا واللّيثُ غضبانُ

وأنكرها المرزوقيّ، وآثر عليها رواية (غدا). وفي ذلك نظر.

وقولُ عبد يغوث الحارثي:

وقد علمتْ عِرسي مُليكة أنني أنا الليثُ معديًّا عليه وعاديا

وإنما أراد الشاعر من وراء ذلك حثَّ صاحبه على تلافي الأمر وعلى المبادرة إلى الصلح محاذرةً من أن يثِب الموت عليهما مغترَّين فيخطَفَ أحدَهما.

ورُوي (تغدو المنيّة). والرواية الأولَى أشعر وأجود خلافًا للنمَريّ.

ومنه براعة الإيجاز، فإنه استطاع أن يطوي في هذا البيت كلا الاحتمالين اللذين ذكرتُ، وذلك في قوله: (ما أدري على أيّنا تعدو المنية أولُ). وقد أغنته هذه اللمحة المقتضَبة عن الإسهاب في بيانهما إذ أمكنه أن يدلّ عليهما باللزوم. وفي هذا من حُسن الخطاب وتمام الرِّفق ومن حسم دواعي المنازعة والمجاذبة ما لا يخفَى.

٢- وإنّيْ أخوكَ الدّائمُ العهدِ لم أحُلْ إنَ ابزاكَ خصمٌ أو نَبا بكَ مَنزِلُ

التفسير:

أ- اللفظ: **لم أحُلْ**: لم أتحوّل أو أتغيّر، من (حال يحول حَولًا وحُئولًا). **إنَ ابزَاكَ**: أصله (إنْ أبزاك) فحُذفت همزة (أبزاك) ونقِلت حركتها إلى النون الساكنة قبلها. وهي لغة بعض الحجازيين. و**أبزاك**: أثقلك وأعياكَ. والظاهر أنه مشتقّ من بزِيَ الرجلُ يبزَى، فهو أبزَى: إذا تقدَّم صدرُه وتأخّر ظهره ودخلَ. وهو ضدُّ الأحدب، فكأن معنى (أبزاك) جعلكَ أبزَى بإثقال ظهرك بالتكاليف والمطالب، على تشبيهها بالمحسوس الذي يُحمل على الظهر. وهي قريبة من معنى (آده يئوده). وهذا أصحّ من تفسيره بـ(غلبك وقهرك). ومنه قول الفرزدق:



إن كان أنفُكَ قد أبزاكَ محملُه   فاركبْ أتانَكَ ثم اخطُبْ إلى زبِقِ

نبا بك: إذا جعلك تنبو. والذي أراه أن الباء هنا بمعنى التعدية، فهي بمعنى (أنباك) كما قالوا: (ذهب به وأذهبه). ونبوّ المرء عن منزله هو أن يمتنع عليه القرار والاطمئنان فيه لأذًى أو همّ.

ب- التركيب: يقول: أنا صاحبك الذي تعرف، لم أتغيّر عن ما عهدتَّني عليه من الغوث والنجدة متى ما أثقلك خصم أو أقلقك منزل.

التأويل: لما فرغ من تحذير صاحبه فجاءةَ الموت وتفريقَه بينهما، وبَعَثَه بالإيماء الرفيق على تذكُّر حسن صنيعه معه وصدقِ ولائه له رأى أن السبيل قد تمهَّدت له ليصرِّح بما أومأ إليه، فذكّر صاحبه بأنه أخوه الثابت الإخاء، الدائم المودّة، الحاضر النّجدة، وأنه لا يزال على ما عهِده عليه لم يتغيَّر، وأنه إن احتاج إليه في أوقات الشدّة وجده سريعًا إلى معونته منحازًا إلى صفِّه قائمًا بنصرته، وذلك إذا أعياه خصمه وثقُل عليه أو لم يطمئن به منزله من ما يجده فيه من الأذى والإهانة. ونظير ذلك قول لبيد في معلقته:

ترّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضَها   أو يَعتلقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

وقولُ امرئ القيس:

وإذا أَذِيتُ ببلدةٍ فارقتُها   ولا أقيمُ بغير دار مُقامِ

وقول عبد قيس البُرجميّ:

واتركْ محلَّ السّوءِ لا تحلُلْ به   وإذا نبا بك منزلٌ فتحوَّلِ

النقد: أحسن الشاعر في إيثاره التعريفَ حيث قال: (أخوك الدائم العهد)، ولم يقل: (أخٌ لك دائم العهد)، فكأنه يقول: إن يكن لك أخٌ دائم العهد معروف بذلك فأنا الأخ الدائم العهد. ولست أخًا منكورًا من جملة الإخوان وحسبُ. وأحسنَ أيضًا في تعبيره عن الوفاء بدوام العهد ثم في توكيده لذلك بقوله: (لم أحُلْ) مع أن دوام العهد مقتضٍ له ومغنٍ عنه، إذ أراد لِيقول لصاحبه: إن حُلتَ أنت عن العهد فقطعتني وتغيّرت عليّ أو توهّمت أني تغيّرت فأنا لم أحُلْ ولم أتغيّر. وهذا من التوكيد البليغ الموافق لموضعه.

والرواية المعروفة (إنَ ابزاكَ خصمٌ). وروَى بعض العلماء (إنَ ابزاكَ خطبٌ). وأراها أصحّ وأسَدّ لأن الذي يُثقِل ظهرَ المرء ويُعييه هو الخطبُ، أي المصيبة أو المشكلة، وليس الخصم، إذ الخصم إنما يوصف بالمحاربة أو الإيذاء. على أنّ الكريم يأنَف أن يقول له قائل: (إن غلبك خصمك أو أعياك فأنا أنجدك)، ويأبَى أن يُنسب إلى ذلك أو يقِرَّ به لأن هذه صفة الأذلّة المستضعفين. هذا مع أن في انتحال هذا القائلِ النجدةَ والمعونةَ وادعائه أنه هو المخلّص له والمفرّج عنه إنزالًا لنفسه منزلةَ القويّ وإنزالًا لصاحبه منزلةَ المستضعَف الذليل. وهذا خطَل من القول، ونقضٌ للغرض من الأبيات، فبعيدٌ أن يكون هو ما قاله هذا الشاعر.

٣- أحاربُ مَن حاربتَ من ذي عداوةٍ وَّأحبِسُ ماليْ إن غَرِمتَ فأعقِلُ

التفسير:

أ- اللفظ: **مالي**: المالُ هنا الإبل. وكذلك هو معناه إذا أُطلق في كلام العرب. **غرِمتَ**: الغُرم ما يلزم المرءَ سدادُه من دين ونحوِه في غير جناية. **أعقِل**: أدفع العَقْل عنك، وهو الغرامة.

ب- التركيب: يقول لصاحبه: أحاربُ من تحاربه من أعدائك. وإذا أصابتك غرامة منعت إبلي أن تخرج للمرعى وقضيتُ بها غرامتك.

التأويل: لما بيّن في البيت السابق صدق إخائه لصاحبه وصحّةَ وفائه وقيامَه بنجدته في أوقات الشدّة فسّرَ ذلك في هذا البيت فذكَر أنه يبذل له أنفس ما يُبذَل، وهو النفس والمال، فأما نفسُه فإنه يجود بها للمناضلة عنه والقتال معه. وأما مالُه فإنه يهُون عليه أن يؤديَه عن صاحبه متى أثقله المغرَم وطولِب بالأداء.

النقد: أحسن الشاعر في قوله: (أحارب من حاربت) إذ جعل نفسه تابعًا لصاحبه وجعل إرادته منقادة لإرادته، وجعل صاحبه هو المبتدئ للحرب المقتدحَ لزَندها، فهو له كما قال المتنخِّل الهذلي:

إذا سدتَّه سدتَّ مِطواعةً ومهما وكلتَ إليه كفاهُ

وهذا من ما يَزيدك شكًّا في الرواية السابقة (إنَ ابزاك خصم) لأنها تصوِّره بصورة البطل القويّ المخلِّص وتصوِّر صاحبه رجلًا ضعيفًا مقهورًا. وقولُه: (من ذي عداوة) ليس بالجيّد لأنه إن يكن صاحبه لا يُحارِب إلا ذا العداوة فهو حشو لا طائل منه. وإن كان قد يحارب غيرَ ذي العداوة فهو اشتراطٌ غير مستحسَن لأن غاية النصرة في مذهب الشعراء ممالأةُ الصديق لصديقه وإنجادُه والانضواء إلى صفه من غير شرط ولا تردّد ولا سؤال. وعلى ذلك قول الحماسيّ:

لا يسألون أخاهم حين يَندبُهم في النائبات على ما قال برهانا

وقول الحماسي الآخر:

إذا استُنجدوا لم يسألوا من دعاهمُ: لأيّة حربٍ أم بأيّ مكانِ؟

وهم يذكرون مثل ذلك في خِصال الكرم. ومنه قول الشاعر:

لا ينكتُون الأرض عند سؤالهم لتطلّبِ العِلّات بالعِيدانِ

وأسلَم من بيت معْنٍ وأحسنُ إيجازًا قولُ الحماسيّ الآخر:

أخوكَ أخوكَ من يدنو وترجو مودّتَه وإن دُعيَ استجابا
إذا حاربتَ حاربَ من تعادي وزاد سلاحُه منك اقترابا

إذ وضعَ (تعادي) موضع (تحارب) وبرأَ من التَّكرار والحشو.

وقوله: (أحبس مالي) تخيُّر بارع للّفظ، إذ كان يمكنه أن يقول: (وأحبس المال) أو (مالًا)، ولكنه أضاف المال إلى نفسه بياء المتكلّم إمعانًا في الدلالة على تمام الإيثار، فهو يؤثر التفريج عن صاحبه من ماله الخاصّ. ثم لم يقل: (مالًا لي) أو (مِن مالي)، بل قال: (مالي)، فهو (ماله) كلُّه. وفي قوله: (وأحبس) تصوير بديع، إذ لم يقل: (وأدفع مالي عنك) لأنه أراد أن يكشف عن مقدار تقديمه لحظّ صاحبه على حظّ نفسه، فهو يمنع إبله أن تخرج للمرعى مع ما في هذا من فوات التمتّع بجمالهنّ وبهاء منظرهن الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ ﴾ [سورة النحل:٦]، ومِن مغالبة المحبّة لهن والطمَع في نمائهن الذي جاء في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ حتى قال: ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ [سورة آل عمران:١٤]، وتسمحُ نفسه عوضًا من ذلك بأدائهن عن صاحبه ابتغاءَ التنفيس عن كربه والقضاءِ لذمامه!

٤- ستَقطعُ في الدُّنيا إذا ما قطعتَني ... يمينَكَ، فانظرْ أيَّ كَفٍّ تَبَدَّلُ!

۞ التفسير:

أ- اللفظ: **تَبَدَّلُ**: مضارع (تبَدلَ). وأصله (تَتبدَّلُ)، فحُذفت إحدى التاءين جوازًا. وذلك كثير في القرآن وفي كلام الفصحاء نحو قوله تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۞ ﴾ [سورة الليل:١٤] أي: تتلظَّى، وقوله: ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾[سورة الأحزاب:٥٢] أي: تتبدّل. ولا تُستعمَل في الفصحى المعاصرة، ولكنها مستعمَلة في العامّيّة!

ب- التركيب: يقول لصاحبه: إنك إن قطعتني في هذه الدنيا فكأنما قطعت يمينك، فانظر هل تجد من كفٍّ تحلّ محلّها وتغني غَناءها!

۞ التأويل: لما صدّر أبياته بتذكير صاحبه بتفريق الموت بينهما واستفتح خطابه بالإيماء والكناية ثم تحوَّل بعد ذلك إلى التصريح والإبانة فعَدَّ عليه آيات إخائه وعرّفه صدقَ مودّته في الماضي والمستقبَل تجاسر قليلًا على الإيغال في التصريح بعد أن ألقَى إليه ما هو حقيق أن يستميل به قلبه وبعد أن اطمأنّ إلى نَفاق ذلك عليه وتأثّره به، فأدلّ عليه بعض الإدلال فحذّره عاقبة فراقه إياه في حياتهما كما حذَّره في البيت الأول عاقبةَ فراقه بعد موت أحدهما. وقوله: (إذا ما قطعتَني) يُراد به (إن استمررتَ على قطيعتي) لأنه قد كان قطعَه، فهو نظير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة:٦]، يقول لصاحبه: إن استمررت على قطيعتي كنتَ كما لو قطعت كفّك اليمنى، لأن الكفّ أداة العمل ومحلّ التصرّف. وجعلَها اليمنى لأنها أشرفُ وأكثر نفعًا. ومن ذلك قول ابن الدمينة:

أبِيني أفي يُمنَى يديكِ جعلتِني ... فأفرحَ أم صيّرتني في شِمالكِ[1]

فجعل اليمنى دليل الرفعة، والشِّمالَ دليل الضّعة.

وقولُ الآخَر:

---

(١) (الشِّمال) للجهة المعروفة بكسر الشين. وفتحُها خطأ شائع. أما إذا أريد بها الرّيح فإنها بالفتح (شَمال).

فأنت امرؤ كلتا يديكَ مفيدةٌ شِمالُك خيرٌ من يمين سِواكا

ثم سأله أن يفتِّش وينظر أيجد صديقًا يقوم مقامه ويغني عنه؟ وقد علم أنه لن يجد.

۞ النقد: جمعَ الشاعر في هذا البيت إلى تحذير صاحبه الندمَ على صرمه بعد الموت تحذيرَه الندمَ على ذلك قبل الموت أيضًا، فسدّ عليه المخارجَ ولم يدع له متنفَّسًا يلوذ به ويُخلد إليه. وهذا بيانٌ عالٍ. وقد اختار الشاعر لفظَ (قطعتني)، ولم يقل: (هجرتني) أو (صرمتني) ليستوفيَ تشبيه الهجر بقطع اليمين، فكأنه يقول: (قطعك لي هو قطع ليمينك)، فانظر كيف تأتّى له أن يجمع بين اللفظين مع أن القطع الأول بمعنى الهجر، والقطع الثاني بمعنى البتر الحسّي، ثم انظر كيف سخّر ذلك في إحكام التشبيه وعقد المشاكلة. ولو قال: (إذا ما هجرتنَي) لسقط شطرُ الحسن من هذا البيت. ومن محاسنه أيضًا اختياره لفظَ (يمين) دون (كفّ) لما ذكرتُ لك آنفًا من فضيلة اليمنَى وكثرة منافعها. ثم قال: (فانظر أيّ كفٍّ تبدّل) بصيغة الأمر فالاستفهامِ، فأمر صاحبه أن ينظر: هل من كفٍّ يستطيع أن يتبدَّلها بيمينه؟ وقد أيقن أن صاحبه لن يستطيع ذلك، ولكنه أحبَّ أن يكون هو المجيب عن ذلك وبعد النظر والبحث ليكون ذلك أدعى لتسليمه وإذعانه، وأنفَى لمكابرته.

٥- وفي النّاسِ إن رَثّتْ حِبالُكَ واصلٌ وَّفي الأرضِ عن دارِ القِلَى مُتحوَّلُ

۞ التفسير:

أ- اللفظ: **رثَّت**: قدُمت فبلِيت وضعُفت. القِلى: البغض. ومنه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [سورة الضحى:٣].
مُتحوَّل: اسم مكان من (تحوَّلَ)، أي مكان يُتحوَّل ويُنتقَل إليه.

ب- التركيب: يقول: إن ضعُف وصلك أو انقطع ففي الناس أبدالٌ منك. وإن ضاق عليّ المُقام بأرضك التي أجدُ فيها البغض والأذى انتقلت عنها إلى أرض غيرِها.

۞ التأويل: كأن الشاعر حين عرَّف صاحبَه مقدارَ ما سيلحقه من الخُسْر بتفريطه في حقّه وتجافيه عن صلته توهّمَ أن صاحبه قد يقول في نفسه: (وأنت أيضًا يا معنُ سيلحقُك من ذلك ما يلحقني) فعطفَ عليه بهذا البيت فقال: أنت أشدُّنا خُسرًا لما جرّبتَه من موالاتي لك ومسارعتي إلى نصرتك. وأما أنا فإني وإن كرهتُ القطيعة وأحببت استئناف المودّة ومراجعة الصِّلة فلا تظنّنّ إن أبيتَ إلا قطيعتي أني لن أجد أخًا أعتاضه منك أو أصيبَ أرضًا تحملُني عنك.

۞ النقد: قدَّم الشاعر في هذا البيت لفظَي (الناس) و(الأرض) ليوكّد معنى الاستغناء عن صاحبه إن أصرّ على الهجر والقطيعة.

٦- إذا أنتَ لم تُنصِفْ أخاكَ وجدتَّهُ على طَرَفِ الهِجرانِ إن كانَ يَعقِلُ[١]

---

[١] (الهِجران) بكسر الهاء. وضمُّها خطأ شائع.

 التفسير:

- التركيب: يقول: إن لم ينصف المرء أخاه من نفسه ولم يقض حقوقه عليه فإنه لن يلبث أن يراه مائلًا إلى هجره ومختارًا لمفارقته على صحبته إن كان له عقل يحجزه عن الإقامة على الذلّ والرّضا بالظلم.

التأويل: بدأ الشاعر أبياته مترفّقًا بمخاطبة صاحبه حتى إذا ألقَى إليه ما تنهض به الحجّة عليه من تذكيره بأدلّة صدقه وآيات مودّته وتعريفه عظَمَ غَنائه لدَيه وشدّةَ حاجته إليه، هاجَه ذلك على الأنفة لنفسه أن تحمله المعاتبة والاستعطاف على إذلالها والإزراء بها فجنح إلى التعزُّز والتأبّي وإظهار الاستغناء وإلى الإمعان في التحذير فأخبر صاحبه أنه إن أقام على جفائه له وقلّة إنصافه معه فسيجده مُشفيًا على الهِجران صائرًا إليه، وذكرَ له أن هذا هو مقتضَى العقل. وإنما قال: (على طرَف الهِجران) ولم يقل: (على الهجران) أو (هاجرًا لك) ليبيّن له أنه لا يزال مواصلًا له وأنه لمّا يهجره مع قلّة إنصافه له، وليدلَّه بذلك أيضًا على إمكان تدارك الأمر ومعاودة سالف الإخاء.

النقد: من محاسن هذا البيت أن الشاعر جعل الخطاب عامًّا فقال: (إذا أنت لم تنصف أخاك) ولم يقل: (إذا أنت لم تنصفني). و(أنت) هنا ليست خطابًا لمعيَّن في ما أرى، بل هي مثل (أنت) في مثل قول امرئ القيس في معلّقته، في إحدى الروايتين:

وأنت إذا استدبرتَه سدَّ فرجَه ... بضافٍ فُويق الأرضِ ليس بأعزلِ

يريد معنى (ومَن استدبرَه). ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ [سورة الكهف:١٧]، أي (ومن يرى الشمس حين إذٍ يراها تَزَاورُ). وإنما اختار الشاعر هذا الأسلوب ليجعل القضية عامّة والحكم شاملًا له ولغيره، وذلك كي يبرّئ نفسه من تُهمة الجنَف والتحيّز وليكون أدعى للرضا والقبول. ثم ذيّله بقوله: (إن كان يعقل) ليبيّن سبب الإشراف على الهجران، وهو أن ذلك من ما يوجبه العقل من لزوم خصال الأنفة ومنابذة دواعي المذلّة والمهانة. وفي ذكره لهذه العلّة حسنُ تتميم للعذر.

٧- ويَركبُ حَدَّ السَّيفِ مِن أن تَضيمَهُ ... إذا لم يكن عن شَفرةِ السَّيفِ مَزحَلُ[١]

التفسير:

أ- اللفظ: **تَضيمه**: تظلمه. **مَزحَل**: اسم مكان من (زحَل يزحَل) إذا تنحّى وتباعد. ويقال: (زحَل له عن موضعه) إذا فسحَ. **مِن** أن تضيمه: معنى (مِن) هنا البدل، أي (بدلَ أن تضيمه). ومنه قوله تعالى: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [سورة التوبة:٣٨].

---

(١) تَضيمه: بفتح التاء من (ضامَه ضَيمًا). ولا يجوز ضمّها.





ب- التركيب: يقول: وإنّ المرء العاقل أيضًا ليحمله إباءُ الظلم وكراهيةُ الإقامة عليه على أن يفرّ منه وإن أفضى به ذلك إلى احتمال المشاقّ الممضّة التي في ركوبها من الإيلام والإضجار وامتناعِ الاطمئنان مثلُ ما في ركوب حدّ السيف إن هو لم يجد بدًّا من ذلك يَزحَل إليه.

۞ التأويل: كأنّ الشاعر أجاب عن اعتراض خشي أن يَحيك في صدر صاحبه، وهو أن يقول صاحبُه: ولكنك إن اعتضتَ منّي صاحبًا غيري ومن أرضي أرضًا أخرى فإنك واجدٌ من مرارة فقدي مثلَ ما حذّرتَني من مرارة فقدك، فلستَ بأهوننا خسارة ولا أيسرنا ألمًا. فأجاب الشاعر عن ذلك بأن فصَل بين الأمرين، فبيَّنَ أنّ أمَرَّ من فقده هو لصاحبه بقاؤُه محتملًا للضَّيم، وأنه متى تبدَّل به غيرَه استحالت هذه المرارة حلاوةً عنده لأنها نقلتْه من مرارةٍ أشدّ منها. وأما هو - أي صاحبُه – فليس أمره كذلك لأنه لم يَلحقه ظلمٌ ولا ناله ضيمٌ من جهته.

۞ النقد: من محاسن هذا البيت أنه شبَّه ما يلقاه المرء من احتمال الظلم براكبٍ حدَّ السيف، وذلك أنه لا يطمئنّ البتةَ ولا يقِرّ له قرارٌ، فهو لا يزال يتأذّى ويتململ ويتجافى. وهذا تشبيه بديع. ومنها أنه لما أعاد ذكر (الحدّ) عبّر عنه بـ(الشفرة) لأنهما وإن كانا مترادفين ففي كلّ واحد منهما من الظِّلال والوحْي ما ليس في الآخر، ففي عرضهما على خاطر المخاطب زيادةٌ في توكيد المعنى ومعونةٌ على استحضار صورة اللفظ. على أن في ذلك أيضًا تطرية للسمع ونفيًا للملالة وإتحافًا للمخاطَب. وذلك كثير في كلام الله تعالى وكلام العرب، منه قوله تعالى: ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة المؤمنون:٦٨]، و(جاء) بمعنى (أتى)، وقولُه: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سورة المؤمنون:٧٢] و(الخرج) هو (الخراج). ومنه قول طرفة في معلقته:

فما لي أراني وابنَ عمّيَ مالكًا   متى أدنُ منه ينْءَ عني ويبعُدِ

و(النأي) هو (البعد). وقولُ عَديّ بن زيد، في إحدى الروايتين:

وقدّمتِ الأديمَ لراهشَيهِ   وألفَى قولَها كذبًا ومَينا

و(الكذب) هو (المين).

٨- إذا انصرفتْ نفسي عن الشّيءِ لم تَكَدْ   إليهِ بوجهٍ آخرَ الدّهرِ تُقبِلُ

۞ التفسير:

- التركيب: (إليه بوجهٍ آخر الدهر تُقبل). قوله: (بوجه) متعلّق بـ(تُقبل)، أي: تقبل إليه بوجهٍ آخرَ الدهر.

يقول: إذا عافت نفسي الشيءَ وأدبرت عنه فإنها لا تكاد تُقبل إليه بوجهها أبدًا مرّة أخرى.

۞ التأويل: انتهَى الشاعر في هذا البيت إلى الغاية في تخويف صاحبه عاقبةَ إجحافه به وهضيمتِه له وبخسِه لحقّه. وكأنه أحسّ أن صاحبه قد يستهين بما ذكره آنفًا من تحذيره لأنه ربما



توهَّم أنه وإن صار إلى هِجرانه ومباعدته فإنه لا ينشَب أن يرجع إليه ولو بعد حين، فسدّ على صاحبه هذا المنفذ وأغلق عليه باب التعلُّل به فقال له: ولا تتوهَّمْ أني إن هجرتك لسوء صنيعك معي فإني سأعاود وصلَك يومًا، فإن طباعي تأبَى ذلك. واعلمْ أني لست سريعًا إلى القطيعة، ولكن متى اضطُررت إليها وحُمِلتُ عليها انصرفت نفسي عن الشيء وزهدتْ فيه، ومتى وقع ذلك منها فإنها لا تُقبل عليه بوجهها آخر الدهر ومنتهى أمد الحياة.

النقد: أجاد الشاعر في نسبته الانصرافَ إلى نفسه فقال: (إذا انصرفت نفسي) ولم يقل: (إذا انصرفتُ)، كأن ذلك أمر خارج عن سُلطان يده، فليس له إلا الطاعة والاتّباع. وهذا على حدّ قولهم: (لا تطاوعني نفسي). ومثلُه بيتُ اللاميّة المنسوبة إلى الشنفرى:

ولكنّ نفسًا حُرّةً لا تقيمُ بي ... على الضّيمِ إلا ريثما أتحوَّلُ

فنسب إباء الضيم إلى نفسه.

ثم قال: (عن الشيء) ولم يقل: (عنك) ليكون أبعدَ من التحيّز وأحظى بالقَبول إذ لم يخصُّه بهذا الأمر ولا قصرَه عليه، بل هو عامٌّ فيه وفي غيره، وليكون أيضًا أدلّ على اللزوم والثبات لجريانه في الجميع، فهو بمنزلة العادة الماضية والطبع الراسخ الذي لا يتغيّر ولا يزول.

بلاغة الأبيات:

جمع الشاعر في هذه الأبيات المعدودة ألوانًا شتى من الخطاب، وتصرَّف في معانيها بوجوهٍ من التصرُّف، فقد بدأها بالإيماء الليّن الموادع، ولم يزل يتدرّج حتى ختمها بالتصريح الجريء الصادع، وجمع فيها بين الإيجاز والإطناب، وبين الترهيب والترغيب، وبين الإطماع والإيئاس، وبين التعميم والتخصيص، ووفَّى المعنى حقّه، وقرَن إلى كل شيءٍ لِفقه، فخوّف صاحبَه عاقبة الهجر بعد موت أحدهما، وعاقبةَ الهجر في حياتهما، وعرَّف صاحبه حاجته إليه، ثم أحسن التنصُّل من لزوم حاجته إلى صاحبه، وأحكم عَقد الحجج، وسدّ مخارج الاعتذار، وفرَّق بين المختلفات، وأنزلَ التصوير في موضعه، واستعان بالتقديم والتأخير في محلّه، وتقلّبَ بين الإخبار والأمر والاستفهام للتوصل إلى غرضه، وألطفَ التفهُّم أيضًا لما قد يعتلج في صدر صاحبه، ثم أجاب عن هذا كلّه بأوضح عبارة وأعذب بيان.

وكتبه:

د. فيصل بن علي المنصور



فناء اللذة[1]

حتى لو لم يكن هناك عقاب أخروي، فالانهماك في اللذات الجسديَّة -خلافا لما يُتَوَهَّم بادي الرأي- هو أقصرُ طريقٍ للتَّعاسَةِ الرُّوحيَّة، وهو الحبلُ الغليظُ الملائم لخنق رقبةِ الامتياز البشري عن البهائم، وهذه الشهوات تموت في نفس الإنسان وتفنى مرتين:

فهي **أولا** تَضمحلُ نشوتُها في أوحال الاعتياد، وتتلاشى لذتها في حضيضِ التّكرار، ويسري في متعتها المتخيَّلة دبيبُ الفَناء، وذلك كلما أوغَل الإنسان في تلافيفِها، وتحقَّقَ اقتداره على مواقعتها، وهذه الحقيقة السافرة من المستحسن أن يعرفها جيدا الشاب المتعفف في أول الطريق، فربما كانت عاصِمًا له من الانزلاق في بئر الرغبات السحيق الذي لا قعر له، وهي حقيقةٌ عميقةٌ تغيب عن أذهانِ كثيرٍ من المتباعدين عن حضيض الشهوات المحرمة إما عِفَّةً أو عجزا، فيزين الشيطان حياةَ الإيغال في الشهوات للعفيفِ أضعافَ تزيينها للفاجر، فما عُهِدَ أن الصيَّادَ يطعم السمكة وهي في الشبكة، ولستُ أعني هنا ما تتركه الشهوات المحرَّمة على النفوس البشرية من طمس أرجائها وإطفاء مصابيحها وتكدير صفائها فحسب، وإنما أعني أن اللذَّةَ نَفسَها تفقد مع فرط الانغِماس رونقها السابق وبهجتَها الأولى شيئا فشيئا، إلى أن تفسد على الغارقِ في أوحالها حرامَها وحلالَها، فلا يَكادُ يجد فيهما لذة.

وإذا أَجَلْتَ نظرةً عَجلى في أَدَبِ المجّان من الأدباء والشعراء وَجَدتَّ بين طيَّاتِه بعضَ الإشاراتِ العابرة المتناثرة التي ترسم لوحة حزينةً من عمق الشعور بالندم واستبدادِ الإحساس بالتيه وألمِ فُقْدان المعنى، فعلى سبيل المثال فهذا الشاعر الإنجليزي الشهير بايرون كان غارقًا في إشباع شهوات الجسد إلى أذنيه، كتب في مذكِّراتِه وهو في سن الثالثة والعشرين المبكرة هذه الأحرف الحزينة: **(لم يعد للحياة معنى، لقد خضتها حتى**

---

[1] هذا تعليق كتبته، وهو متصل بيتي أبي نواس:

ولقد نَهزت مع الغواة بدَلوهم ** وأسمت سرح اللحظ حين أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه ** فإذا عُصارة كل ذاك أثام

وهما ضمن المختارات المضمَّنة في هذا المجموع.



الثمالة، وجبت أقاصيها وأغوارها، ونهلت من ملذاتها بلا حساب، لأجد أن ليس على الأرض من هو أحقر من الإنسان، لقد سئمت الرذيلة، وجفت رغباتي، فما عاد يغريني من الحياة نبيذها ولا جنسها[1]).

وهذا الشاعر الدمشقي المعاصر الذي ملأ شعرَه بتصوير لذات الشهوات، يلخِّص بوضوح تجربته الخائبة في مداواة الأحزان النفسية بإشباع رغبات الجسد، ويبوح لقارئه أن ذلك كان مجرّد مسكِّنٍ وقتي لم يبدِّد عواصف الأزمات الروحية العميقة:

الجنس كان مسكِّنا جربته لم ينهِ أحزاني ولا أزماتي
والحب أصبح كله متشابها كتشابه الأوراق في الغاباتِ

وهي **ثانيا** تفنى بعد مواقعتها، ولا يبقى منها بعد تلك اللحظات العابرة إلا آثارها الثقيلة، فهذا الشاعر العربي القديم أبو نُواس الذي ترك حبلَ شهواتِه ملقًى على غاربِه، حين أراد أن يلخِّصَ هذه الحياة الموغلة في تتبع اللذات واستقصائها، استعرض في ذهنه شريط حياتِه ونَخَلَه فلم يبق في ذاكِرَتِه منه إلا مجرد (**آثام**) ثقيلة ملقاةٍ على العاتِقين، يقول النواسي معترفًا بكل أسى:

ولقد نَهزت مع الغواة بدَلوهم وأسمت سرح اللحظ حين أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عُصارة كل ذاك أثام

ويستحسن البلاغيون كثيرا قولَ أبي نواس هنا: (**ما بلغ امرؤ بشبابه**) دون تفصيل منه وبيان لتلك الأفاعيل، ففي هذه الإبهام المقصود إطلاقٌ لطائر الخيال من قفصه ليحلق بعيدا، وليقع على محتَمَلاتٍ كثيرةٍ من صورِ الانغماسِ في اللذات، ومع ذلك فلم يبقَ من تلك اللذائذ الكثيرة في ذاكرة النَّواسي إلا مجرد آثام!

وربما ينبعث ها هنا تساؤل منطقي: ما دامت الشهوات المحرمة تفنى لذتها في حضيض التكرار والاقتدار، وتستحيل بعد مبارحتها عبئا ينقض الظهر، وتفسد لذة الحرام والحلال، فلماذا لا يعود أولئك الذين وصلوا آخرَ النفق المظلم بعد أن أدركوا أنه حالكُ السَّواد؟ ولماذا يزداد انغماس كثير منهم في هذا الطريق؟ ولماذا هو يتوغل باستمرار

---

[1] كتاب مشردون، أندرو شافر، ترجمة منير عليمي (٣٣ – ٣٤).



ويتطلب اللذة المفقودة في انتهاك محظورات جديدة بعد أن سَلَبَ الاعتيادُ من لذائذه السابقة ثيابَ المتعة؟

وعندي أن الجواب مُتَضَمَّن في الكلمة المأثورة المنسوبة لأبي بكر رضي الله عنه: (**هذه الأجساد إما قفص الطيور أو اصطبل الدواب**)، والأرواح طيور خُضر تختنق بروائح الاصطبلات، وهذا الباب إذا فُتح على مصراعيه مرةً واحدةً سَقَطَتْ عُروته على الفور، وأخذ يَصطَفق لكل نَسْمةِ هواءٍ خفيفة، وما عاد ينغلق كما كان إلا بصعوبة بالغة وعزيمة تامة، وما أشدَّ الوجع أن يجتمع على الإنسان: جفاف المتعة، وانحسارُ اللذة، وتمدُّدُ الرغبة، واختناق الروح ومواتها داخل أنقاض الجسد فما تستطيع التحليق في الملكوت! يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تصوير هذه الحال المؤلمة: (**إن كان قادرا أقبل على الشهوات، وأسرف في التذاذه بها ولا يمكنه تركها، ولهذا تجد القوم من الظالمين أعظم الناس فجورا وفسادا وطلبا لما يروحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم ومأكول ومشروب، ومع هذا فلا تطمئن قلوبهم بشيء من ذلك**[1])، ولذلك فإنَّ كلَّ من أراد أن ينعش أفراحَ روحه بذكر الله تعالى والأنس به وبكلامه، كانت أول خطوةٍ في هذا المضمار هي الكفّ عن الاسترسال وراء الشهوات المحرمة، وغضّ البصر عن ما يخنق الروح بحبال المادّة الفانية، والصبرُ على ذلك الطريق، واحتساب الثواب فيه، فإذا بالروح المخنوقة تنبض وتتردد فيها الأنفاس، وتنحلُّ من عِقالِها، وتنفكُّ من قِيادِها، وتعود للحياةِ بهجتها وبريقها، وَمَنْ عَكَس الوِجهة وجعل اللذة الفَانية رائدَه ودليله، فإنها تعتقله أولا، ثم تفنى في جوفه ثانيا، ثم تُنْشِبُ أظفارَها الطويلة في قَصَبة روحه ثالثا!

وكتبه:

سليمان بن ناصر العبودي

[1] جامع الرسائل (٢: ٣٦٢).





صخرة الأسرار[1]

ذُكِر في بعض كتب التراث أن منسوبا إلى العلم والعقل كان يعلم أخبارا خطيرة لا تحتملها عقول العوامّ من حوله، فلم يستطع أن يخبر بها أحدا، فضاق صدره بها، فكان يبرز إلى العراء وحيدا يحفر بها حفرة صغيرة، ثم ينكب عليها فيحدث فيها بما في جوفه من أخبار، فبهذا الصنيع كان يروح عن قلبه، وتهدأ نفسه، وتسكن روحه، لشعوره العميق أنه قد نقل سره المكتوم من وعاء إلى وعاء!

وإذا جرب المرءُ الناسَ وعاداتهم، ودقق في طبائعهم وأحوالهم، لا سيما مع تقلبات الظروف والأحوال عليهم، وانحلال عرى المودة بينهم، أدرك أن خلَّةَ كتمانِ الأسرار أندرُ من الكبريت الأحمر، وأن غالبهم يستشعر أن للأسرار تاريخ ولادة وكتمان أيام الوداد، وتاريخ وفاة ونشرٍ وإعلان لحظاتِ البعاد، وكثير من خاصة العقلاء لا يبتدرون نشر الأسرار كفاحا، وإنما تراهم إذا ملكوا ألسنتهم عن الابتداء بإفضاء الأسرار ونشر الأخبار، لم يتمكنوا من محو تغيرات ملامح الجبين، واحمرار الوجنات، والضحك أو التمعُّر، والإضافة أو الإكمال والتعديل، وذلك إذا ورد على مسامعهم خاطرٌ متعلق بذلك السرّ المكتوم!

ومن كتم شيئا من ذلك في أيام القرب والصفاء، لم يقدر على مثله في أيام البعد والجفاء، وكالعادة سيجد كل كائنٍ يمشي على وجه الأرض تأويلا قريبا لما يشتهي أن يفعله مما يشفي به غيظَه، ولن يعدم ثوبا سابغا يخرّج به دوافعه النفسية وتصرفاته الأخلاقية، وإنما يُعرف معدنُ الرجال زمن الخصومات، والشهم وإن سمح للغضب أن يلجَ باب قلبه، فإنه لا يمنحه فرصة الاحتلال الكامل لروحه، ولا يهبه السيطرة التامة على إرادته، ولا يملِّكه مفاتيحَ تصرفاته، بل يغضب ذوو الشهامة كغيرهم ثم تبقى لديهم حدودٌ من الأخلاق لا يتجاوزونها، وتظل عندهم حرمات للخصومة لا ينتهكونها، وسيظل

---

[1] هذا تعليق كتبته على أبيات مِسْكين الدارمي:

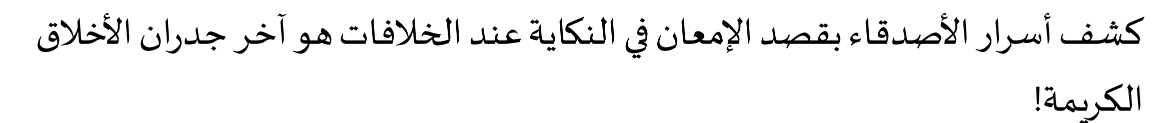
وفتيانِ صدقٍ لَسْتُ مطلعَ بعضِهِم ... على سِرِّبعضٍ غيرَ أَني جِمَاعُها

لكلِّ امرىءٍ شِعْبٌ منَ الْقَلبِ فارِغ ... وموضعُ نجوى لا يُرامُ اطِّلاعُها

يَظَلُّونَ شتى في البلاد، وسرُّهم ... إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انْصداعُها

وهي ضمن المختارات المضمَّنة في هذا المجموع.





كشف أسرار الأصدقاء بقصد الإمعان في النكاية عند الخلافات هو آخر جدران الأخلاق الكريمة!

***

ذكر العلامة ابن حزم الأندلسي قصةً طريفةً له مع أحدِ أصدقاء الرخاء هؤلاء، أولئك الذين تسبب حرارة الغيظ جزْرا في أخلاقهم الكريمة، فيفزعون إلى كشف الأسرار المبثوثة في المجالس الخاصة،-وعادةً المرء أن يلقي تسعة أعشار تحفُّظه في المجالس الخاصة-، والأعجب في القصة هي شهامة ابن حزم في تعاطيه مع تنكّر صاحبه له وانقلابه عليه، فلم يقارضه على الانحطاط بانحطاط، وإنما بادر لإذهاب قلق صاحبه بأبيات يونّسه بها! فلله درَّه! قال ابن حزم:

(كان لي مرة صديق، ففسدت نيَّته بعد وَكِيدِ مودَّةٍ لا يُكفَر بمِثلِها، وكان علم كل واحد منا سرَّ صاحبه وسقطت المؤنة، فلما تغير علي أفشى كل ما اطلع لي عليه مما كنت اطلعتُ منه على أضعافه، ثم اتصل به أن قوله فيَّ قد بلغني، فجزع لذلك وخشي أن أقارضَه على قبيح فعلته، وبلغني ذلك فكتبت إليه شعرا أونسه فيه وأعلمه أني لا أقارضه) .

رضي الله عن ابن حزم الأندلسي على شهامته النادرة، فرغم كونه اطلع على أسرار صاحبه أكثر مما اطلع عليه صاحبه من أسراره، لكنه لم يستعمل هذه الثغرة لإلحاق الأذى بصاحبه.. فأخلاق الرجال لجامٌ وثيق يشتدُّ طوقُه في أعناقهم كلما دعاهم الغضب بأعلى صوته إلى حظيرة الانتقام!

لذلك كله أعجبتني أبيات مسكين الدارمي، فقد أشار في أبياته الثلاثة إلى ثلاثة معان متظاهرة في توكيد معاني الكتمان:

أحدها: أن إفضاء أحدهم بأسراره إليه لا يحمل مسكينا على أن يفضي بأسرار الآخرين إليه، فهو لا يطلع بعضهم على أسرار بعض! فكثير من الناس يجعل معرفة أسرارك رخصة فورية لكشف أسرار الآخرين لك.

الثاني: أن اقتراب أحدهم كابتعاده، له موضع من القلب فارغ لا يرام الاطلاع عليه مهما تناءت الأجساد.

الثالث: حين شبه صدره بالصخرة التي لا تنصدع، ففي الصخرة معنى الاستقرار والثبات على مر الزمان وتبدلات الأحوال، وانقلاب المودة أو انحسارها.





الغيابُ الموجِع[1]

نقل أبو عثمان الجاحظ (٢٥٥هـ) وغيره أنه قيل لأعرابي: ما بالُ المراثي أجودُ أشعاركم؟ قال: **لأنا نقول وأكبادنا تحترق!** كان ذلك الجواب ملائما للحال قبل أن يتحول غرض الرثاء على مر العصور إلى واجب اجتماعي يُلقى على عاتق ذوي الراحلين وأصحابهم، فيجعل شاعرا كبيرا مثل أحمد شوقي يقول في مطلع مرثيَّتِه المتأخرة فَنّيا عن إمكانياته الشعرية: (**سألوني لمَ لمْ أرثِ أبي؟!**)، فالمفترض من شوقي -حسب هؤلاء السائلين- أن يرثي والده الراحل بكل حال، وأن يخلق أحزانا من العدم، ويحنطها في جوف أوزان شعرية من نحاس، وأن يجتهد في بناء تمثال لغوي من جليد يذوب بعد نصف نهار!

نعم.. لقد فَعَلَ شوقي كل ذلك حسب طلبات المستمعين، وكتب قصيدةً اختفت مبكرا في زحمة ديوانه، لأنها سارت من القلم إلى النشر، فلم تمر بكبد محترقة موجوعة نحو كَبِدِ ذلك الأعرابي.

احتراق الأكباد هو ما تجده بيِّنا وأنت تتلو دالية ابن الرومي، وعينية أبي ذؤيب الهذلي، ورائية التهامي، وميمية شوقي في رثاء والدته، وهو ما جعل المراثي أروعَ وأوجع وأصدق ما كتب في الشعر العربي القديم.

ومن أروع الأبيات التي تروقني للغاية في هذا الغرض، هما بيتا مهلهل في رثاء كليب، وذلك لكونهما نجحا ببراعة في التقاط مشاعر الفَقْدِ الموجعة، فمن أوجع ما في الفقد استشعار قوة حضور الراحل المعنوية، واستحضار مكانته وهو يملأ المكان، ثم تهيمن حقيقة الغياب فتمضي الحياةُ بعدَه بحالتها الرتيبة، لكن مع تبدل قسري في الأدوار، وانقلاب الهامش على المتن، وتقدم الساقة على القافلة.

ليس بالضرورة أن يكون الراحل -كما كان كليب- مَلِكًا مستبدا يقرع الناس بسيفه، بل فقدان الحضور الوجداني العميق الذي يبسط سلطانه المعنوي في النفوس أبلغ وألصق بالمعنى الجميل المخبَّأِ في بيتي المهَلهِل.

---

[1] هذا تعليق كتبته على بيتي المهلهل بين ربيعة:

نُبِّئْتُ أنَّ النَّارَبَعْدَكَ أُوقِدَتْ *** واسْتَبَّ بَعْدكَ يا كُلَيْبُ المجلسُ

وَتَكَلَّموا فِي أَمْرِكُلِّ عَظِيمَـةٍ *** لوكنتَ شاهِدَهُم بِها لم يَنْبِسوا

وهما ضمن المختارات المضمَّنة في هذا المجموع.



الشيء الملفَّف![1]

قال عبد الله بن معاوية:

رأيت فُضيــلا كان شيـئًا ملفّفًــــا ... فكشّــفه التمحيــص حتى بدا ليــا

أأنت أخي ما لم تكن ليَ حـــــاجة ... فإن عَرَضتْ أيقنــتُ أنْ لا أخا ليــا

كِلانا غنـيٌّ عن أخيــه حيـــاتَه ... ونحن إذا متنـــا أشــدّ تغانيـــــا

احتفى أهل الأدب والمنتخبات بهذه القطعة الجميلة، فَأَتَتْ في حماسةِ أبي تمّام، والحماسة البصرية، وذكرها المبرّد في الكامل، وابن قتيبة في عيون الأخبار وغيرهم، واستحسان هؤلاء دليلٌ كافٍ على جودتِها لفظًا، ومعنى! غير أنّ تمحيص "ابن معاوية" لم يرُق لي! إذ ما كان من حقّ فُضيل أنْ يُمحَّص بهذه القسوة!

سامحك الله يا ابن معاوية! ما الذي دعاك لتمحّص فُضيلًا؟ لو تركته ملفّفًا كما كان، لاستمتعت بأخوّته دهرًا! فلم يُخلق الأصدقاء للتمحيص، والتكشيف، والبحث عن خفاياهم؛ وإنّما لنخوض هذا البحر الخضم الذي اسمه الحياة بمساعدتهم!

كم سيغرق في هذا البحر من متهوّك أحرق زورقه لرداءة خشبه! وما علم أنّ مَهمّة الزورق إيصالُه إلى الشاطئ، فإنْ فعل ذلك فقد أدّى ما عليه!

كُلّنا ذلك الشيء الملفّف يا ابن معاوية! فإذا ما مُحّصنا ظهر عوارُنا، (وأيّ الرجال المهذّب؟) على رأي نابغة ذبيان..

ولو أنّ فُضيلا سبقك في مهمّة التمحيص، لرأى منك ما رأيت منه وزيادة!

وأنت أخي القارئ، دعني ألتفت إليك وأحادثك، فقد شبع معاوية وفضيل موتًا _رحمهما الله_ وقد باتا (أشدّ تغانيا) كما تنبّأ ابنُ معاوية:

لا تجعل التمحيص من مهامّك في الحياة، بل ارْضَ من صاحبك بما طاوعت به نفسُه، وأتى رضيّا سهلًا، لا كلفة فيه ولا تنطّع، كما قال الكميت الأوسط:

ألا إنّ خير الودّ ودّ تطوّعــتْ ... به النفس لا ودّ أتى وهو متعبُ

[1] كتبه الشيخ علي الفيفي.

وهذا من معاني قول الحقّ سبحانه: "خُذِ الْعَفْو" خذ ما سمحت به نفسُ صاحبِك، وهان عليه بذلُه، ودع ما سوى ذلك، ولا تُكْرهه على ما لم تسمح به نفسه!

وما فتّش أحدٌ عن (الشيء الملفّف) فأفلحَ!

فهذا معاوية بن أبي سفيان، وليس صاحبَنا "ابنَ معاوية" سأل الأحنف بن قيس عن: الشيء الملفف في البجاد! الذي ذكره الشاعر في قوله:

إذا ما مات ميْتٌ من تميـم فسرّك أن يعيش فجئ بزاد

بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسمــــن أو الشيءِ الملفّف في البجاد

فقال الأحنف: هي السخينة يا أمير المؤمنين! والسخينة طعام تُعيّر به قريش! فلو لم يمحّص معاوية، لم تخرج السخينة من ذلك البجاد الملفف!

فدع ما لُفّف مكانَه، وانصرف إلى ما لم يلفّف من الأيام الجميلة التي جمعتك بصاحبِك، وذكريات ليالي الأنس، ومواقف الرجولة.

وعلامة كون التكشيف والتمحيص من السوء أنّه لا يزاولُه صاحبُه إلّا مُغضبًا، وأنّه لا (يشرّف) إلا بحضرة أبي مرّة!

وهذا ابن معاوية يذكر في آخر مقطوعته (موضوع المقالة) كلمة السرّ التي جعلته يلجأ إلى ما واراه فضيلٌ ولفّفه فقال:

فعينُ الرّضى عن كلّ عيبٍ كليــلةٌ ولكنّ عينَ السّخط تُبدي المساويا

إذن هو السُّخط! هو الغضب! هو أبو مرّة بشحمه ولحمه! هي هذه الكوكبة غير المباركة من دعاك إلى التمحيص! وكشْفِ الشيء الملفف!

وصدق نبيّ الهدى ‘ إذ قال: "**لا تغضب**"!

وما أشرف ما قاله الشريف الرضيّ وهو يتحدّث عن "فُضيلِه" الذي لم يمحّصه:

ولو أنني كشّفتــه عن ضميره أقمتُ على ما بيننا اليومَ مأتما

إذا العضوُ لم يؤْلِمْك إلا قطعتَـه على مضضٍ لم تُبق لحمًا ولا دما

فلا تكن الصديقَ الذكيَّ جدًا، الذي يراقب رسائله لصاحبه، هل قرأها؟ ومتى قرأها؟ ثم لماذا لم يبادر بالرد؟

لا تمثّل دور الشُّرطي في علاقة روحيّة بحتة لا تعترف بقسائم المخالفات!

لا تفرك وردة لم يُخلق عطرها لتفركه، وإنّما لتستنشقه!

لا تتعامل مع "روح" وكأنّها سلعة استهلاكيّة خرجت من قالب التشكيل، وهي متّجهة إلى مرحلة التغليف ثم التوزيع في نقاط البيع!

لا تبلُ أخبارَ من أحبّك بصدق، فتخرج لك أضغانُه، وتقلبّاتُ مزاجه، وفواتيره الخاصّة التي لم يطلبك يومًا أن تشاركه في سدادها!

الإنسان قارّة من الأحاسيس، نعم، لن ترى في صيفه المطر، ولكن انتظره، فسوف تبتسم لك أزاهيرُه في الربيع!

وردد معي قول بشّار بن بُرد:

فعش واحدًا أو صل أخاك فإنّه   مقارف ذنب مرّة ومجانبـــــه

وكتبه

علي بن جابر الفيفي



البَــردُ المُقعِـد![1]

"سألــتُ المحبّـــين الذين تحمّلــوا ** تباريحَ هذا الحُبِّ من سالفِ الدهر

فقلــتُ لهم: ما يُذهِـب الحبَّ بعدما ** تبـوّأ مـا بين الجـــوانحِ والصّـــدرِ

فقـــالوا: شفـــاءُ الحبِّ حبٌّ يزيله ** من آخر، أو نأيٌ طويلٌ عــلى هَجرِ

أو اليــأسُ حتى تذهـلَ النفسُ بعدما ** رجت طمعاً، واليأسُ عونٌ على الصّبرِ"

●●

قلتُ مرّةً مَن أراد أن ينظر إلى لوعة الشوق ولاعج الوجد متمثّلَين في صورة أحرف وكلمات فليطالع هذه القطعة! وأذكر أنني كنتُ أتمتم بكلماتها ذات مرة -(المحبين)، (تحملوا)، (تباريح)، (الحب)، (الجوانح)- فاستبان لي أن وراء حرف الحاء المتكرر حُرقةً مُمضّةً يخفّفها النطقُ به، وأن "جوزيف كونراد" كان محقّاً عندما شبّه الفلفل الحار بقلبٍ تشتعلُ فيه جذوةُ الحب! فالفلفل هو الذي أشبه في حرارته الحُبّ لا العكس.

يُخيّل لي أن هذه القطعة هي إحدى الزفرات اللواتي (تكادُ تنقضُّ منهنّ الحيازيمُ) كما يقول غيلان، أو هي زفرات قابعة في صدر صاحبها لا تغادره، فهي فيه تصعد وتهبط كأنها تائه ضلّ الطريق! كما وصفها الصمّة القشيري بقوله:

إذا زفراتُ الحُبّ صعّدن في الحشا ** كرَرن فلم يُعلم لهـــنّ طريقُ!

---

[1] هذا المقال تعليق لعثمان العمودي على أبيات (أم الضحاك المُحاربيّة) التي أنشدَتها حزنا على طلاق زوجها لها، وهي إحدى المقطوعات التي اختيرت في قناة: (مختارات شعريّة للحفظ)، https://t.me/poetry_sn.



ولو تأملت قولها (ما يُذهبُ الحُبّ)؟ وسرَح فكرُك حتى خيّلَ لك السائلةَ وهي تكفكف برمشِها دمعةً تكاد تنحدر، وتمنعها عزّتُها عن رفع يدها وإمرارها على وَجنتِها، وأصغيتَ إلى صوتِها وهو يتهدّج كسريرِ صبيٍّ ما تفتأ أمّه تؤرجحه: (ما يُذهبُ الحُبَّ بعدما تبوأ ما بين الجوانح والصّدر)؟= لأبصرت بجلاء صراعَ المشاعر الذي تخوضه هذه المرأة، ولربما سمعت قعقعةَ هذا الصراع، وما هو إلا صوتُ اضطرام نار الوَجد في قلبها ..

وما جرَّها إلى هذا الحال إلّا كثرة السؤال، وإدامة الفكر، وإطالة الأمل، فإنّ الحبَّ (كامن كُمُونَ النار في الحجَر، إن قدَحتَه أوْرَى، وإن تركته تَوارى) ..

لهذا كنت أقف كثيراً متأملاً ذلك الجواب الذي ختمَت به وصفةَ علاج الحبّ: (اليأسُ حتى تذهلَ النفس)! وطنَّ في رأسي قولُ شبيب بن البرصاء: (فقد يعزِفُ اليأسُ الفتى فيعيجُ) ..

إي وربي، قد يعزِفُ اليأسُ الفتى -بعد طول مدة- فيُطأطئ رأسه برهةً، ثم يرفعه مرةً أخرى، وعيناه تشعّان ببريقِ الأنَفة عن مراده الذي كان يطلب، وتنخذل جحافلُ عزيمته التي كان يعدّها لتحصيل مطلوبه ..

وهكذا تُطوى صفحة من صفحات النضال، وينقضي فصل "الشوق" بحرارته، وتسقطُ على الأرض إحدى أوراق الخريف معلنةً دخول فصل (اليأس) ببردِه!

من هنا تدرك جوابَ بعض العرب لما سئل: ما أبرد من الزمهرير؟ فقال: اليأس! وتتفطن لقول الشاعر:

ولقد جعلتُ اليأسَ بَيــ ** ــن جوانحي فوجدتُّ بردَه

إن حرارةَ الشوق وبردَ اليأس يتدافعان، فالشوقُ إذا تخالجَ صاحبَه زاد من عزمِه على الظفر ببغيته، فتجده حثيثَ السعي، واسعَ الخطو، لا ينفكّ عن مداعبة غايتِه ببناتِ فكرِه ..

والعكس في ضدّه، **فاليأسُ إذا حطّ رحلَه في قلبِ امرئٍ أقعدَه عن مراده**، وزهّدَه في تحصيل مطلوبه، وإنك لتجد المرءَ يطمحُ إلى الشيء أعواما، حتى إذا استعصى عليه مرادُه، واستحكم في قلبه اليأسُ؛ لوى عنانَه عنه فلم يعد يجد للسعي إليه لذّة، وأمسى حصوله من عدمه سواء! أوليس قد قيل (اليأس إحدى الراحتين)؟

وقد لمح هذا المعنى أبو محمد ابن حزم في قضية هي أكبر من هذا وأجلّ فقال -رحمه الله-: (وكل ما ذكرنا إنما هو على قدر الطمع، فإذا انحسم الطمعُ عن شيءٍ ما لبعض الأسباب الموجبة له مالت النفسُ إلى ما تطمع فيه، ونجد المقرَّ بالرؤية لله عز وجل شديدَ الحنين إليها، عظيمَ النزوع نحوها، لا يقنع بدرجة دونها؛ لأنه يطمع فيها، وتجد المنكرَ لها لا تحنّ نفسه إلى ذلك ولا يتمناه أصلا؛ لأنه لا يطمع فيه، وتجده يقتصر على الرضا والحلول في دار الكرامة فقط؛ لأنه لا تطمع نفسه في أكثر).

وكثير من الغاياتِ العظيمة التي نرجوها، والمطامح العالية التي نسعى إليها، إنما هي دائرة بين هذين الأمرين، فمن احتملَ حرارةَ الشوق ومُرَّه؛ جهَد نفسَه وبذَل وسعَه، فأوشك أن يحصّل مرادَه، **ومن ركَن إلى بردِ اليأس وخبا من عينيه وهَجُ الإقدام؛ خلا قلبُه من معنى الحياة ..**

فما أحلى حرارةَ هذا الشّوق! وإن كانت تلذعُ صاحبَها أحيانا ..

وكتبه

عثمان بن عبدالله العمودي



فهرس الموضوعات

تم بحمد الله ،،


قناة (مختارات شعرية للحفظ)
بإشراف سليمان العبودي
https://t.me/poetry_sn